

الباب الثاني

ثورة الشباب والأحفاد

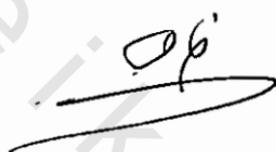
بنت لوجعة بعزيرة سعوية
أنا مشافعة مع بدمها جدا وراثا في نقرتي كما ذهبت إلى أم طامه. روليا مشافه
أبو أحفاد بعفاريه كها كيت بعزيرة.

obeikandi.com

حفيدة إيزيس

(*)

أسيدة / زينب توفية الحكيم



- وتظنى أنه يجب أن تموتى لا سمح الله حتى أعرف قيمتك !؟
- مرسل إليك شيك بمبلغ ٥ آلاف جنيه !
- وإذا لم يفهموا ذلك فالويل لهم !
- فذلك لكى أبرر للمستولين عدم حضورى بمجالس .. الثقافة !

(*) غلاف ظرف أحد الخطابات التى كتبها الحكيم لابنته .

كانت زينب كأخيها تتخذ قراراتها مع أمها ، وتنفذها بعيدة عن والدها ، فضلا عن أنها انسانية تعتر جداً بنفسها وآرائها ، وتثق في قدرتها على اتخاذ القرار السليم ، فكانت تحسم أمورها بنفسها وتشكل حياتها كما تريد ، وحينما تزوجت لأول مرة وصفها ذات يوم في تصميمها* بأنها مثل « إيزيس » ، بطللة أحد كتبه الذي أهدها لها قائلا :

إلى ابنتي زينب حفيدة إيزيس في عيد ميلادها

١٧ أكتوبر ٨٦

توفيق الحكيم

وحينما تعارض استكمالها لدراساتها العليا مع تفرغها لبيتها وأولادها « مريم ، واسماعيل » ، احتكم زوجها « نبيل حسين » في خلافه معها إلى والدها الحكيم الذي انحاز إلى وجهة نظره في أن تتفرغ زوجته للبيت والأولاد .

(*) تنبأ توفيق الحكيم قبل زواجه في مقال بأهرام ٢١ يناير ١٩٤٥ ، ببعض الصفات التي ستكون عليها ابنته بعد إنجابها إذا حدث وتزوج يوماً ، وقد صدق الواقع بعض هذه الصفات حين يقول « تجمع أحياناً وتنفر وتحيد عما رسمته لها من اتجاهات ، وتجاوزني وتجاوزني بمنطق عجيب يعجز عن تقديره تفكيرى العتيق ، إنها رفضت كل من تخيرت لها من أزواج أكفاء ، ووقعت في غرام (.....) وإنما لترجو أن أوافق على هذا الزواج ، إنها تتحدث عن الحب كأنه الأساس الوحيد لكل حياة زوجية في عصرنا الحديث ، وأنها تزعم أن ذلك دليل نضوج الشخصية في الإنسان ، وأن الزواج المبني على الحب هو وحده الجدير بفرد في مجتمع راق » .

ولكن الزوج شعر بخطئه الكبير عندما جعل زينب تمكث في البيت ، واعترف للحكيم بأنه لو لم يفعل لاستمر زواجهما أكثر مما استمر . وكان ما يهيم للحكيم في هذه المرحلة الحرجة من حياة ابنته هو الترتيب لحياتها فيما بعد وقوع الانفصال ، فطلب منها أن تنزل بشقته بالاسكندرية ، ولكن زينب أساءت فهم والدها الذى كانت تنتظر منه أن يطلب منها أن تكون معه بالقاهرة ليكون عوناً لها وسنداً في مثل هذه الظروف ، ولذلك ظنت أن والدها أبعدها عنه في وقت هي في أشد ما تكون حاجة إليه ، ولكنها لم تستوعب وجهة نظر والدها الذى أرادها أن تتحمل مسئولية قرارها بنفسها ، وأن تواجه متطلبات حياتها الجديدة بما يناسبها ، فربما شعرت برغبتها في العودة عن قرارها ، وبذلك يعفيها من الحرج فيما لو وابتها مثل هذه الرغبة وهى معه بالقاهرة ، فهى الآن لم تعد صغيرة ، وعليها أن تعتمد على نفسها ، لأن والدها لو عاش لها اليوم فقد يختفى عنها غداً ، والظروف مواتية للقدر ، وهو في مثل هذه السن المتقدمة .

هذا هو تفكير الحكيم لابنته وهو يطلب منها الانتقال لشقته بالاسكندرية ، في وقت هي لم تفكر فيه كيف ستعيش بعد طلاقها . ولما جاءت زينب في زيارة والدها بعد أن هدأت واستقرت ، أوضاعها الجديدة ، لم يسألها عما حدث . كيف ، ولماذا ؟ .

وإن كانت هي رغم ذلك قد أبتت على صداقة زوجها السابق من أجل أن تظل علاقته بأولادها موصولة غير مقطوعة ، يزورهم ويزورونه ، وتتشاور معه في أى قرار يخصهم ويتعلق بحاضرهم ومستقبلهم ، مما جعل الحكيم يتعجب من هذه الطريقة التى تربي بها زينب أبناءها بالاشتراك مع زوجها الذى انفصلت عنه برغبتها ، ولذلك قال لها : إن طلاقها عجيب لم ير له مثيلاً من قبل فقد تحول إلى فائدة للطرفين .

وإن كانت زينب لم تغلق الباب تماماً أمام رغبة « نبيل » من أجل إعادة مياه الحياة الزوجية إلى مجاريها إذا ما ضمنت قدراً أكبر من التفاهم وتقارب الأمزجة وتوافق الطباع .

* * *

ورغم أن زينب كانت قد تزوجت مرة أخرى إلا أن زوجها قد فارقتها على غير رغبته ورغبتها ، فقد مات بعد سنة واحدة من دخوله بها ، رغم تمنيات الحكيم لها بالسعادة الدائمة كما يقول اهداؤه له على كتابه « بجمالون » :

إلى ابني محمد على حسن تهنئة بعيد ميلاده مع دوام السعادة له مع بنتي زوجته المخلصة وكل عام وأنتم بخير .

والدكم

١٨ / ١١ / ١٩٨٤

توفيق الحكيم

وفي عيد زواجها الأول يهديها « سجن العمر » قائلاً :

إلى محمد على حسن وزوجته بنتي زينب حسين توفيق الحكيم تهنئة لها :

بمرور عام على دخولها سجن العمر المؤبد بإذن الله

والدها

١٥ مايو ١٩٨٥

توفيق الحكيم

وكأنه يتنبأ بأنه لن يفرقها إلا الموت ولكن الحياة جمعتهما مرة أخرى في ابنها « محمد » الذي ولد يتيماً .

وبينما كانت الزوجة التكلي غارقة في حزنها تتلقى العزاء ، كان والدها كعادته مشغولاً بالترتيب لاستقرار ابنته بعد أن تجف الدموع ، فتحدث إلى إحدى شقيقاتها لكي تواسيها ، وتطمئنها ألا تشغل بالها بتدبير أمور

حياتها فقد أعد لها كل شئ . والتقطت زينب من حديث والدها ، وهى تودع المعزين :

هل فهمت ماستقولينه لها ؟

وشقيقتها ترد عليه : حاضر يا بابا ، فتوقعت زينب أن والدها يتحدث فى شأنها بما لا يتعلق بما هى فيه من أحزان ، ولذلك عندما تحدثت إليها شقيقتها بما يريد أن يقوله لها أباه ، أخذتها العصبية بالغضب وهى تظن أن والدها لا يشعر بما هى فيه من آلام اليوم ، بينما هو مشغول بالغد ، فهل هى فى إيه واللإ إيه؟! ولكنها اعترفت بعد ذلك بأنه كان على صواب ، فلم يهجم وقتها المشاركة فى سرادق الأحزان ، بقدر ما كان يهجم ما بعد الأحزان ، وبعد أن اطمأن على الترتيب لحياة ابنته وأولادها ، راح يواسيها بما كانت تود سماعه منه وقت أن تفجر كيائها بمصايبها .

وبعد أن أفاقت زينب من عواطفها لتفكر بعقلها اكتشفت أنها أساءت فهم والدها لأنها لم تعرفه كما يجب أن تعرف ابنة أباه ، وكيف تعرفه وتفهمه ، وهى لم تبدأ تلتصق به إلا فى سنواته الأخيرة ، خاصة بعد أن تزوجت أرملة ابنه اسماعيل ، فكان بحاجة إلى من يؤنس وحدته ، ولم يكن هناك سواها ، زينب ، التى بدأ يرسل إليها مجموعة من خطاباتة ، التى ييشها فيها شوقه وحبّه باعتبارها الوحيدة التى بقيت له من الدنيا ، ولم يعد يشعر إلا برغبته فى أن تكون معه دائما كما تدل على ذلك رسائله إليها .

فى خطابيه إليها المؤرخ بغير ذكر السنه يحكى لإبنته عن موقفه من زواج أرملة ابنه وتظهر عليه روح الأب الذى لا يرجو لها إلا السعادة ، وهذا الخطاب يمثل مرحلة الانتقال بين مرحلتين .

يقول توفيق الحكيم :

باريس في ٣ سبتمبر

بنتى العزيزة الحبيبة سوزى أكتب إليك هذا الخطاب السريع من باريس بعد أن ذهبت إلى مكتب الـ Air France لأحجز مكان بالطائرة للعودة يوم السبت ١٥ سبتمبر في الطائرة التي تصل مطار القاهرة حوالي الساعة تسعة ونصف مساء . واخترت يوم السبت وهو اليوم الذي تحضرون فيه عادة إلى القاهرة على أساس أن أجازة (٠٠٠٠٠) يوم الأحد .

هذا أما بقية المشوار فهي حكاية طويلة لا بد أن أحكيها لك بنفسى بالتفصيل .

ولكن ملخصها انى عدت مع فوزى^(*) من اليونان إلى باريس في منتصف شهر أغسطس تقريبا واتصلت بهيدى فى التليفون فقالت لى إنها محتاجة ضرورى لحضورى لأقابل بكر وأحادثه لأنها أهم شئ عندها أن أوافق على الشخص . وفعلا وجدته فى غاية الأدب والتهديب ووافقت ورأيت أن الأحسن الارتباط بالزواج فى أسرع وقت ، لأن أهلها كما فهمت موافقين ولا شئ يؤخرهم غير حرجهم منا نحن أسرة اسماعيل أن يتم شئ قبل السنوية . وهذا سر الدبلوماسية والتحفظ فى كلامهم معنا . فلما عرفوا أنى أقترح التعجيل بالزواج لأن مسألة السنوية لا تهمنا ونحن لسنا دقة قديمة .

(***) صديقه د . حسين فوزى .

فرحوا جدا وكان موفى في لندن وكذلك أشرف ، وخصوصا أن أشرف أيضا سيتزوج الانجليزية صاحبتة ولن يستطيع أن يبقى معه في شقته الصغيرة أخته هيدى ولذلك ترك بكر شقته لهيدى ونام هو في حجرة عند أصحاب الشقة فكان من الضروري معالجة هذا الوضع بسرعة ليرتاح الجميع ولا نكون نحن أهل اسماعيل العقبة في سبيل هذا الحل . ولذلك فرح الجميع بموقفى وعقدنا الزواج في القنصلية وأنا أول الشهود باعتبارى في مقام والدها . وبعد ذلك أى في اليوم التالى تركت العروسين ورجعت أنا إلى باريس حيث صمم حسين فوزى أن أقيم معه في شقته بدل الفندق لأنه وحده فيها بعد أن ذهبت زوجته المريضة إلى المصححة جنوب باريس . وهكذا سأبقى مع فوزى لحين قيام الطائرة Air France في يوم ١٥ سبتمبر : وأراكم في خير وعافية وسلامى وقبلاتى لك و(.....) وكذلك قبلاتى الكثيرة لسوسو * * * ومريم أعز الأحفاد .

والسلام لبقية الأسرة وبالأخص منصوره^(١) وإلى اللقاء قريبا بإذن الله أبوك الذى يحبك جداً

توفيق

* * *

وفي خطاب يرسله الحكيم إلى زينب مع « بشير » - الطباخ - يحدد لها فيه الموعد الذى يمكنها الحضور فيه لاصطحابه للاصطياف بجوارها في الاسكندرية .

وعلى ورقة متوسطة الحجم يميل لونها إلى الصفرة ، ولا ندرى من أى نوعية من الورق كان يختارها الحكيم ليكتب عليها خطابه .

(* * *) حفيده إسماعيل

(١) مديرة بيته ولها فصل خاص بعنوان « الكيك لفظور العصافير » .

يقول في خطابه غير المؤرخ بسنة وإن كان قد حدد بداخله اليوم والتاريخ :

بنتي الوحيدة العزيزة

أرسل هذا الخطاب مع بشير وأرجو أن يكون فيه البركة لك ويقوم بشغلك على أحسن وجه خصوصا وأنت الآن ضيوفك وشغلك في البيت أصبح كثير وأصبح ضروري من طباخ لكل ذلك .
وهذا واعمل ترتيبك على أن حضورنا أنا ومنصورة ان شاء الله يكون في ميعاد يناسبكم وأظن أن الذي يناسبكم للحضور لأخذنا يوم أحد . وربما كان المناسب لكم ولنا هو يوم الأحد ٢٧ يونية . فأخبرونا على كل حال أن هذا اليوم تحضرون فيه لأخذنا حتى نجهز كل شئ للحضور عندكم ونكون مع بعض في أحسن صحة وعافية وخير وسرور .
وقبلاتي لك وللأولاد والجميع والسلام ، والدك

* * *

وكلما سافر الحكيم إلى الخارج يشعر بشوق أكثر إلى ابنته زينب التي يناديها بـ « سوزى » بطلته في « عصفور من الشرق » ويبدى شعوره بالوحشة لها وللعفاريات أحفاده ويحكى لها عما فعله في العاصمة الأسبانية والفرنسية ، ويأخذ منه حديث الغلاء جانبا مهماً ولكنه يواسى نفسه بأنه « لا بد من الصبر واحتمال هذا الكرب » .

وفي خطابه المكون من صفحتين كبيرتين على ورق أبيض هذه المرة إذ يبدو أن باريس ليس بها ذلك النوع الذي يستعمله في مصر ، وكعادته في أغلب الأحيان يسجل تاريخ اليوم والشهر ولا يهتم بالتأريخ بالسنة .

بتى الوحيدة العزيزة سوزى

أنا مشتاق لك جدا جدا ودائما فى فكرى كلما ذهبت إلى أى مكان .

وطبعا مشتاق إلى أحفادى العفارىت الكتاكيت الأعزاء (.....) أنا سافرت من مصر مع الوفد لحضور مؤتمر فى مدريد بأسبانيا وقد استقبلنا السفير المصرى هناك أحسن استقبال وعمل باسمى حفلة حضرتها كل الوفود فى أفخر لوكاندة بمدريد . جزاه الله خيرا . وهو من أسرة عبد الغفار وابن أخ شمس الدين باشا عبد الغفار صديقى الحميم رحمة الله عليه . وقد رأينا فى أسبانيا أشياء عظيمة أخبرك بها عند حضورى إن شاء الله . حتى مصارعة الثيران المشهورة فى أسبانيا حضرنا حفلتها وشاهدنا كيف يصارع الفارس على ظهر حصانه الثور الهائج وينتهى بقتله . منظر مثير . أما المتاحف التى تعرض أهم آثار الفن الخالد مثل متحف البرادو المشهور فطبعا زرناه .. وزرنا مدينة توليدو أو بالعربى طليطلة وهى مرتفعة على جبل ... ونحو ذلك كثير . ثم ذهبنا إلى باريس وطبعا أنا نزلت حتى الآن فى شقة صديق العمر الدكتور حسين فوزى . وفى باريس لى نشاط ثقافى مستمر فقد أخذوا منى هنا فى أهم برنامج راديو وهو France Culture حديثا طويلا سيداع هنا بإذن الله فى يوم ١٧ يولييه . وكذلك خلال هذا الأسبوع سيكون لى حديث آخر فى التليفزيون الفرنسى لم يحدد بعد ميعاده . هذا بخلاف حضورى تمثيل مسرحيتى « شهر زاد » .. وكان تمثيلها وإخراجها لا بأس به وقد أعجب الكثير من الحاضرين .

وهنا كثير من المشروعات الثقافية والفنية معروضة على .. ولذلك أظن

حضورى إلى مصر يمكن أن يتحدد قبل آخر الشهر . وفي الغالب أوائل أغسطس بإذن الله .

وبالطبع سأخطرکم تلغرافيا عند تحديد أى موعد للحضور
(.....)

بالطبع . هذا وقد أخبرنى أحد كبار المسئولين فى السفارة المصرية بباريس أن سيدة تريد مقابلتى لأنها صديقة بنتى سوزى وقال ان اسمها « دينا » ففهمت أنها صاحبتك وزميلتك فى الدراسة بالكلية فى اسكندرية وانت وهى دائما معا فى المذاكرة . ولم يتحدد بعد موعد المقابلة . وهى كما علمت جاءت باريس فى بعثة فى السوربون وجاء معها زوجها بعد أن نقلوه إلى باريس فى وظيفة لم أفهم جيدا ماهى ؟ وجاء بالطبع معها أطفالها . يعنى هى الآن مع عائلتها بالكامل فى باريس أى مع زوجها وأولادها . أما باريس فهى غالية نار ولا يمكن تناول أى غداء بأى مطعم بأقل من خمسة جنيه مصرى . وأنا وحسين فوزى إذا أردنا أن نأكل أكلة معقولة شوية لا يمكن بأقل من عشرين جنيه مصرى لشخصين فقط . والحمد لله أن السكن فى باريس بجانا لأن شقة حسين فوزى نعمه من الله . والبركة للمرحومة زوجته التى كانت اشترت هذه الشقة . ألف رحمة عليها . ولولا الشقة المجانية لما أمكن المعيشة فى باريس بأقل من خمسين أو ستين جنيه مصرى فى اليوم الواحد للشخص الواحد . وكل الناس من المصريين هنا الزائرين ساخطين على هذا الغلاء الشنيع . ولولا بعض مشروعات الأديبة لكنت حضرت بسرعة وجلست كالعادة فى قهوة الكورنيش فى ندوتى مع الأصدقاء مثل كل صيف . ولكن لا بد من الصبر هذا الشهر كله واحتمال هذا الكرب . والآن أنا فى الغربية أشعر بأنى لم يبق لى فى الدنيا عائلة سواك أنت فقط ياسوزى (وطبعا ومعك أولادك أحفادى وزوجك الكريم) (...) وهذا الشعور جعلنى أندم كيف جعلتك تشكين فى حقيقة ضرورتك

لى وتظنى أنه يجب أن تموتى لاسمح الله حتى أعرف قيمتك !.. أنا الآن أعرف قيمتك وضرورتك لى لا فقط بالعواطف والكلام الرقيق الفارغ بل بالواقع الحى والحقيقة الواقعة . وهذه الحقيقة هى أنك باختصار كل شئ أملكه وبقي لى فى الدنيا . وهل توجد حقيقة أخرى غير هذه : إنك بنتى الوحيدة العزيزة والباقى كله كلام فى كلام . ولك وحدك كل ما فى قلبى وفكرى من حب وحنان يمكن أن يعطيه أب لبنته الوحيدة فى الدنيا . أرجو أن تكونى مجتهدة (.....) . لأنها فى الحقيقة كل مستقبلك . وأنا واثق بإذن الله تعالى من نجاحك فيها .

وسلامى لمنصورة ولعبد الجيد^(١) .

وقبلاقى لك ولأحفادى ولزوجك (.....) وإلى اللقاء فى أوائل الشهر القادم بإذن الله وسأخبركم تلعرافيا والسلام ،

والدك
توفيق

* * *

ويستمر الحكيم فى اقترابه من ابنته الوحيدة ، متخذاً فى ذلك عدة خطوات عملية ، حددها فى بندين ، الأول يمنحها شيك بخمسة آلاف جنيه لى تشتري سيارة تساعد فى تنقلاتها ، والبند الثانى هو نصيحتها وأولادها بعدم الإسراف وإلا (فالويل لهم فى المستقبل)

(١) هو مدير الأرض التى ورثها الحكيم عن والدته وسوف يأتى الحديث عنه فى فصل « فلاح عودة الوعى » .

يقول توفيق الحكيم :
بنتى العزيزة

١ - مرسل إليك شيك بمبلغ ٥ آلاف جنيه هو ما استطعت جمعه لك - ولم يبق في رصيدي بالبنك بعد الضرائب شئ يذكر - لشراء سيارة صغيرة لتنقلاتك . على أن تكونى شجاعة وتسوقها بنفسك ولا تحتاجى إلى الالتجاء إلى أى شخص ليسوقها لك . فإني أرى فى الشوارع بنات فى الرابعة عشرة والخامسة عشرة يسقن سياراتهن بمفردهن فى شجاعة وعدم خوف مادام القيادة فى حدود العقل والأصول وعدم التهور . وإياك أن يسوق لك أى شخص آخر . اعتمدى على نفسك وعلى الله تعالى

٢ - أرجوك رجاء ملحا شديدا هو أن تنصحى أولادك بعدم الاسراف وأن تصرحى لهم بكل شئ .. وأن الدنيا ارتفاع وانخفاض . وغنى وإفلاس ... (....) ولذلك يجب أن يلموا أنفسهم من الطلبات فالمستقبل غير مضمون ..

ولذلك شطب « الفيديو » كلية من بيتكم وكفاية التليفزيون مثلى أنا ... ولذلك عدم المطالبة بالملابس الغالية والمصروف الزائد . يجب أن تفهمهم الحقيقة (.....) والدنيا دائما متغيرة وعليهم أن يفهموا ذلك ويستعدوا له لأن الحياة لن تكون دائما كما تعودوا من بحبحة وإسراف ... وإذا لم يفهموا ذلك فالويل لهم فى المستقبل والخطأ سيكون أنت المسئولة لعدم إقحام الأولاد حقيقة الموقف ... وأدعو لكم بالصبر ورحمة الله بكم ،
والدك

● وفي نفس الخطاب يحرص الحكيم على أن يكتب في الهامش الأعلى بخط رأسى مائل بلون آخر غير لون القلم الذى كتب به رسالته لابنته ، موجها الحديث إلى حفيدته مريم ليشركها مع أمها فى المسئولية فيقول : حفيدتى مريم العزيزة اقرئى هذا الجواب وخذى بالك كويس من أمك الوحيدة وساعديها فى البيت .

جدك الذى يحبك
توفيق

* * *

وفى خطاب يبدو أساسا أنه متعلق بشئون الأحفاد وصحتهم ، إلا أنه فى جوهره يبدو مثيرا للغاية ، ففيه يكشف الحكيم عن سر بعض كتاباته التى تحمل روح اليأس والتشاؤم ، لكى يبرر للمسئولين فى المجالس التى هو عضو فيها ، عدم حضوره ومشاركته فى نشاطاتها ، يقول توفيق الحكيم :

٣٠ شهر ابريل

بنى الوحيدة العزيزة سوزى

انت وحشيتتى جداً جداً .. وكذلك الأولاد (....) وأرجو أن يكون سوسو^(١) فى صحة جيدة . وكذلك مريم واللوز عندها تكون عادية . وأرسل لك قصاصة جرنال عن مرض الأطفال باللوز .

وعدم الاستعجال فى ازالتها إلا بعد استشارة خبير اختصاصى واحد أو اثنين أو أكثر فإذا اتفقوا كلهم بدون تردد ممكن ولكن إذا تردد واحد منهم فلا لزوم والمهم معالجة الالتهاب بسرعة .. لأننا كلنا ونحن صغار

(١) اسم الدلع لحفيده إسماعيل .

كانت اللوز تتعبنا دائما لغاية ما كبرنا .. واسماعيل كان كده . هذا واظنك انزعجتى للمنشور فى أخبار اليوم عن الموت والرغبة فى العزلة وعدم ازعاج راحتى فذلك لكى أبرر للمسئولين عدم حضورى فى المجالس .
فأنا لا أحضر أبداً مجلس الشورى ولا مجالس الثقافة أو المجالس المتخصصة مع أنى عضو فيها كلها . ولذلك أحتج لهم بحالتى الصحية والنفسية وموت الزوجة والولد حتى لا يفتكروا إنى متباعد عنهم بدون سبب . كل ما عندى هو القرف العمومى . فأنا قرفان من كل شئ . حتى السفر إلى الخارج . فأنا غير مشتاق له ولذلك أفضل كثيرا أن أكون معك أنت ومع الأولاد فى الصيف . وكلها شهر أو أكثر أى فى يونيه إن شاء الله أكون عندكم بإذن الله وامشى كل يوم على الكورنيش . أحسن رياضة المشى أمام البحر . وانت خدى بالك من نفسك . وأنا بخير وكذلك منصوره . ونحن فى انتظار اللقاء القريب بإذن الله . ولك قبلاقى بالألوف وأنا ليس لى الآن غيرك أنت وحدك فحافظى على نفسك ،
والدك توفيق

وفى ملحق للخطاب السابق يبدى الحكيم فرحه لنجاح حفيديه ، ولكنه يتساءل عن أسباب التطور الذى لحق بابنته ، وذلك تعليقا على الأخبار التى وصلتته عن عزمها على صيام شهر رمضان .

يقول توفيق الحكيم :

٢٥ مايو

ينتى الوحيدة سوزى

كنت كتبت هذا الخطاب فى الشهر الماضى ابريل وكان شقيق منصوره موجود وكتبت الخطاب إليك ليحمله معه ولكنه سافر من بره بره وبقي

الخطاب (شهر ابريل) موجود عندى لغاية ما حضرت أخت منصوره وابنها أمس فكتبت هذا الملحق (مايو) مع الخطاب السابق (ابريل) . وأكرر إنك وحشتيني جداً جداً . والحمد لله إن الشهر القادم (يونيه) قريب وأحضر لكم إن شاء الله . وسأخبركم طبعاً بالميعاد المضبوط لتحضروا وتأخذونا أنا ومنصوره وفي ال غالب فى أواخر يونيه إن شاء الله أى بعد شهر واحد بالضبط بإذن الله تعالى . وأخبرتنا أخت منصوره بأخباركم وفرحنا لنجاح مريم وسوسو ... أما أنت فقد سرتنى أنك أصبحت مستشيخة وناوية تصومى رمضان ولكنى مش عارف أسباب هذا التطور . المهم إنه حاجة كويسة . وأملئ كله أن تكونى أنت وأولادك (.....) فى أحسن صحة وعافية وأن نجتمع كلنا مع بعض فى سرور وهناء بإذن الله تعالى .

والدك الذى ليس له
غيرك انت فقط فى هذه الحياة
مع ملايين القبلات

* * *

وبدأت عجلة الاقتراب والالتقاء بين الأب وابنته تدور بسرعة ، فبدأت زينب تزوره ثلاث أيام كل أسبوع ، ولكنها لم تكن تحدثه عن شىء من حياتها الخاصة ولا تشركه فى حل مشاكلها ولا تدعوه لمعرفة أى شىء عنها ، رغم أنها تعرف أن أمرها يهيم ، وأمره يهيمها ، ومع ذلك لم يحدث الاقضاء بينها إلا حينها بدأت مسيرته مع المرض ، فكان وجود زينب بجواره أمراً ضرورياً يحتاج إليه شيخ فى مثل عمره ، صحيح أنه اعتاد الوحدة ولم يعد يخشاها ، ولكن من الذى يستطيع أن يسعفه بالطبيب إذا

حدث له مكروه ، ومع ذلك لم يشأ الحكيم مع رغبته في أن تعيش ابنته وأولادها معه ، بعد رحيل زوجها ، أن يفرض عليها هذه الرغبة ، فتلك حريتها ، وما يريحتها تفعله ، ولذلك أراد أن يأتي استقرارها معه بإرادتها وقرارها ، وفضلا عن حاجة الحكيم إليها ، فقد كان قلقا على معيشتها وحدها وأحفاده بدون رجل يستندون إليه ، بل إنه كان يخشى عليها من مشقة السفر من الاسكندرية إلى القاهرة حينما كانت تقوم بالتردد عليه ، وإذا أخبرته بموعد حضورها في يوم معين يظل مؤرقا حتى تجيء ، ورغم أنها في بعض الأحيان لا تكون واثقة من أمر سفرها فتقول له إنها يمكن تأتي في اليوم التالي ، فإنه يظل مشغول البال والخاطر لا يعرف طعما للنوم طوال الليل ، ويشكو في الصباح إلى مديرة بيته وعلامات الضيق بادية عليه : هل رأيت يا منصور ما فعلته سوزى مما جعلنى لا أنام طوال الليل ؟

فتطمئننه وتهدى خاطره : معلش يمكن الست سوزى لها ظروف منعتها إنها تحضر وهى ضرورى ستتصل بك لتطمئنك .
وتاتفه زينب تليفونيا بالفعل وتجبره بعذرها الذى حال بينها وبين زيارتها .

ورغم هذا القلق من الحكيم على ابنته في ابتعادها عنه ببلد آخر تطول المسافة إليه ، فإنها ذات مرة وكانت تزوره وأحفاده ، قال لها : لم أعد أريدكم .. سافرى أنت والأولاد » .
بل إنه أهداها كتابه (ثورة الشباب .. قضية القرن الواحد والعشرين) فكتب إليها يقول :

إلى بنتى المتعبة المزعجة لكى تتلهى فى قراءة هذا الكتاب وتركتى فى هدوء وعقبال كل كتاب آخر يقوم بهذه المهمة ،

والدك

١٢ / ٣ / ١٩٨٤

وبعد أن تسافر يأتيها من يقول لها :
باباكي حالته الصحية غير مطمئنة . فتعود إليه ، ولما تذكره بأنه هو
الذي طلب منها أن تتركه وتسافر ، يقول لها مستنكرا :
أنا قلت لك كلام بهذا الشكل ؟ وكيف أقوله ؟.. البيت بيتك وأنا
ضيف عندك ، ويوم أن أغضبك وأقول لك كلاما كهذا قولى لى : خذ
شنتتك وروح اقعد فى بنسيون .. إذا كان الحال لا يعجبك امشى .
ويضيف مؤكدا : إن هذا هو بيتك أنت . لأننى إذا عشت اليوم فلن أعيش
غدا .

وينكر الحكيم ويستنكر أنه قال لابنته « سافرى » ، فهو يريد ما معه ،
ولكنه فى نفس الوقت لا يريد أن يفرض رغبته عليها ، إنه يقدر
حريتها ، فهذه مسألة تهم الحكيم كثيرا ، وهى أن يشعره الطرف الآخر
أنه لا يفعل شيئا من أجله إلا باقتناع ، وأنه لا يفعله لمصلحة الحكيم ، بل
لمصلحة الشخص نفسه ، لأن الحكيم لا يريد أن يشعر يوما أنه يمثل عبئا
على أحد حتى لو كان ابنته ، لذلك جاء ارتياحه عندما وجد زينب تبدى
رغبتها باختيارها أن تعيش مع والدها بشقته فى القاهرة ، لتتحول حياته
بعد ذلك عن مسارها المعتاد بفارق مائة وثمانون درجة .

obeikandi.com

أحاديث المائة

- لو كنت وزيراً للمالية
لشطبت نصف ميزانية الدولة .
- فقال له الشيخ الشعراوي أنه لم يقرأ أحاديثه
مع الله !
- مكافأة ألف جنيه للتوقف عن التدخين !
- ابنتي راقصة ؟ وسمعتي ؟
- شغالة بمرتب أكثر من معاش شيخ الكتاب !
- إنت عايزة تبيعي بلدك ؟!

مع وجود زينب بجوار الحكيم بصفة نهائية بدأ يمارس معها مسئوليات الأبوة التي لم يحس بها ، أولم يعطها الاحساس بها في طفولتها رغم أنه صاحب تسميتها تيمنا بحفيدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أنه كان رافضا لوجودها أساسا في الحياة قبل أن تولد ، مكتفيا بابنتي زوجته ، وابنه اسماعيل الذي جاء على غير رغبة منه ، وعندما حملت زوجته مرة أخرى طلب منها أن تجهض نفسها ، وحينما استعدت لتنفيذ رغبته والذهاب إلى الطبيب ، قام بإغلاق الباب ليحول دون نزولها ، ووقف يمنعها معلنا تراجعها ، فقد تذكر أنه لم يكن يريد أن ينجب إلا أبطاله على الورق ، واطمئن في ذلك إلى اعوجاج رحم الزوجة ، ولكن إرادة الله شاءت أن يعتدل الرحم وتحمل الزوجة وتنجب اسماعيل الذي لم يكن والده مرحبا بوجوده ، وهو لا يريد أن يقف هذه المرة موقفا جديدا فاشلا أمام المشيئة الإلهية التي هو أضعف من أن يتحداها بمشيئته البشرية ، ولذلك استسلم راضيا بقدر الله ، وطلب من زوجته أن تبقى على حملها ، فأنت زينب ، وكأنها الجزء الذي ادخره الله لمكافأة الحكيم لاستسلامه لإرادته لتكون سنده وركنه الأمين في سنواته الأخيرة بعد أن رحلت الزوجة ولحق بها الابن ، فكانت زينب هي ملاذه في مرضه تطيبه وتسهر على رعايته ، وتتابع مواعيد تناوله الأدوية بانتظام .

ولم تفارقه طوال فترة وجوده بالمستشفى ، التي كان مديرها يداعبها ويقول لها :

أنت لك أربعة أولاد .. مريم واسماعيل ومحمد وتوفيق الحكيم . واعتبرها الطبيب واحدة من المرضات ، لدرجة أنه قبل حصوله على

أجازته الأسبوعية كان يوصيها مداعبا : سأترك المستشفى أمانة في عنقك !

وصارت زينب وأبيها جزءا من مستشفى المقاولون العرب ، وكان الأطباء يتسامرون مع الحكيم ويتناقشون معه في كافة الموضوعات ، وأراد الحكيم أن يمارس حياته الطبيعية فحاول التمرد على تعليمات الأطباء الذين منعه من وضع الملح على الطعام ، فيشكو لابنته أن تحضر له ملحاً من البيت ، ولكنها محافظة على صحته كانت تتحجج له في كل مرة أنها نسيت ، حتى كف عن الشكوى ، واكتشفت أنه غافلها ذات مرة عندما تناولت معه الطعام بالمستشفى وأحضروا لها « الملاحه » على صينيتها ، فأخفاها الحكيم داخل ملابسه ، وظل يضع منها على طعامه الخالي من الملح ، دون أن يدري أحد ، حتى ضبطته ابنته متلبسا فانتزعتها منه ، وقد تكرر مثل هذا الموقف أكثر من مرة ، حينها كان يأخذ الملاحه من على صينيتها ويشغلها بالكلام ، إلى أن استطاعت أن تنهى هذه اللعبة ، فكان يترك طعامه ويأكل طعامها ، ولما بدأت تعترض ، بدأ هو يطلب طعاما من خارج المستشفى ، ولما أحس الأطباء بتحسن صحته سمحوا له بممارسة حياته الطبيعية ، وتخليداً لذكري وجود الحكيم بمستشفى المقاولون ، وضع اسمه على الجناح الذي كان يعالج به ، كما علقص صورته بجوار اسم « الجلالة » ، ورغم أن الحكيم خلال فترات مرضه المتقطعة قد دخل أكثر من مستشفى ، إلا أن حنينه إلى المستشفى الأول جعله يطلب أن يعود إليه ، ولكنه انزعج أشد الانزعاج عندما لم يجد اللوحة المشرقة باسم الجلالة ، فأتوا له بها ، صحيح أنها لم تكن نفس اللوحة ، ولكن الحكيم شعر بارتياح عند عودة اسم « الله » إلى حجرته بالمستشفى ، وظلت عينه معلقة عليه لمدة نصف ساعة ، وكأنه يناجي ربه في صمت هذه المرة ، فقد تعلم الدرس من مناجاته المنشورة في أحاديثه مع الله ، والتي أثارت عليه

ضجة بدأها الشيخ الشعراوي متها إياه بالضلالة ، إلى أن دخل الحكيم المستشفى وأعلن رغبته في أن يزوره الشيخ الشعراوي معللا ذلك بأنه رآه في منامه ، ولما زاره الشيخ أخبره الحكيم أنه في مناجاة دائمة مع الله فلم يعد له إلا هو .

فقال له الشيخ الشعراوي إنه لم يقرأ مقالاته في الأهرام حرفيا لكن بعض الصحفيين الذين يثق فيهم نقل مضمونها إليه . وت صالح الشيخ والحكيم ، وصلى الشعراوي عنده وقتا فاجأه موعده ، وأهداه سجادة للصلاة ، وقالب طوب ليتيمم عليه حين لا يستطيع صحيا أن يتوضأ بالماء ، وخرج الحكيم من المستشفى ، ولكنه ظل على موعد معها بعد ذلك ، وكان طبيعيا أن تشغل به ابنته طوال الوقت ، إلى درجة أن أبناءها حاولوا أن يلفتوها إليهم صراحة حينما قالوا لها : نحن أولادك . فتقول لهم :

أنا ممكن أنجب مريم أخرى واسماعيل جديد ومحمداً آخر ، لكنني لا يمكن أن أصنع أبا جديدا .. وغداً عندما تكبرون سوف تحسون بنفس الاحساس وهو أنكم لا يمكن أن تعوضوني كأب لكنكم يمكنكم أن تعوضوا أولادكم .. وما لم أعطه لكم اليوم سأعطيه لكم غدا أو بعد غد .. فالحياة أما مكم ممتدة .. لكن جدكم إن لم أعطه اليوم فقد لا أجده غدا .. إنه الآن مكسبي في الحياة .. لقد أعطانا ولم نعطه شيئا .. لقد تحملنا كثيرا بمشاكلنا ورغم ذلك فقد جعل نفسه المذنب في النهاية !

تحاول زينب أن تشعر أبناءها أن ما تقوم به نحو جدهم هو أقل واجب من الابنة نحو أبيها ، وأن ذلك لا يجعلهم يحسون إلا بكل الرضى فله ديون في رقبتهما كإبنته ، ومهما فعلت فلن ترد شيئا مما له عليها ، وهي محاولة من الأم لأن ترسم صورة مثالية لجدهم ليكونوا في المستقبل على مثال تلك الصورة مع أبنائهم حينما يكبرون ويكون لهم أبناء ، فلا بأس

من محاولة تجميل صورة « الجد » من أجل هدف تربوى ، فليس مطلوباً التحدث عن رب الأسرة بمساوئه فذلك شئ غير مرغوب فيه ولا ضرورة له إلا تكريس الكراهية والأحقاد مما ليس له داع ، ثم إن الأم لا تجمل صورة أبيها أمام أحفاده بغير ظل من الحقيقة فقد تنبه إلى حقوق أبنائه ، صحيح أن ذلك جاء متأخراً ولكن يكفى أنه تنبه ، يكفى أنه اعترف بخطئه وأقر بذنبه ، ولكن ألم يكن يبدى رأيه في أمور حياتها ولكنها كانت تتصرف برأيها هى ، فحينما كان الحكيم منعزلاً عن أبنائه كان يعاب ، وحين رفع جدران العزلة كان جزاؤه التمرد عليه فهل كان يعرف بذلك حينما عزل نفسه عن أولاده ؟ لقد كان رغم تحرره الفكرى والعقلى غير متحرر معهم ، فلم يداعب أحداً منهم أو يأخذه إلى فسحة في حديقة ، أو يصحبه للترفيه بمشاهدة مسرحية أو فيلم ، بل حتى حينما كانت الأسرة تنتقل إلى المصيف فى الإسكندرية كان سجين طباعه ، فمن الصباح إلى ما بعد الظهر حتى الساعة الثانية كان يقضى الوقت مع أصحابه بقهوة « بترو » ثم يعود ليتناول غداءه ثم ينام بعض الوقت ليقوم ليتناول الشاى وحده فى شرفة المنزل « باللكونة » ويفرق فى تأملاته .

ورغم دخول التليفزيون فى مصر فى أوائل الستينات وكان من المنتظر أن يلتف أمامه الأبناء حول أبيهم ، كما يحدث فى كل البيوت التى فيها تليفزيون ، إلا أن الحكيم كان يفضل العزلة فى أغلب الأحيان جالساً أمام جهاز تليفزيون آخر غير الذى تشاهده الأسرة ، ولم يكن يجتمع معهم إلا إلى طعام أو حينما يجتمع الأبناء والأزواج والزوجات والأحفاد فكان وجوده بينهم رمزاً لسيد البيت الكبير ولكنه لم يشرك أحداً معه فى شئ من أموره خاصة أبنائه لأنه كان كتوماً ، ولأن فارق السن بينه وبينهم كان كبيراً لدخوله دنيا الزواج متأخراً ، فكان يرى أبنائه أقل مستوى من أن يجلس معهم أو يناقشهم ، كما أن الحاجز الذى نشأ بينه وبينهم بحكم عزله مع

فنه لم يكن يشجعهم على أن يتحدثوا معه إلا في القليل النادر ، فقد كانت أهمهم تتكفل بكل شيء ، فأشعرتهم بالأمومة والأبوة في وقت واحد ، مع فقدهم الشعور بأبوة الحكيم لهم ، وكذلك كان هو أيضا يشعر بذلك الشعور ، ولم يحاول أن يشعر نفسه أو يشعرهم بأبوته إلا في مرحلة متأخرة بعد أن فات أوان حاجتهم إلى الأبوة ، وكانت العزلة التي فرضها الحكيم على نفسه قد انعكست على أبنائه فلا أحد يزورهم ولا هم يزورون أحدا فعاشوا في عزلة اجتماعية عن الناس والمجتمع حتى عندما تجرأت ابنته زينب في طفولتها وخرجت مع بنات خالتها إلى السينما غضب عليها والدها وضربها ، ورغم أن ضربه من النوع الخفيف الذي لا يسبب ألماً ، إلا أنه مجرد رمز لإشعارها بخطئها لأنها لم تصحب معها المربية ، ولكن الطفلة خاصمت والدها لمدة عشرة أيام ولم ينتبه لذلك إلا بعد أن لاحظ انزواءها عنه وعدم ظهورها أمامه كليا أراد أن يطمئن على تواجد جميع أفراد الأسرة . وأن لا أحداً قد غاب هنا أو هناك ، مجرد اطمئنان على من يرتبطون به وأنه لم يشرد فرد منهم من قلعة أسرته المنعزلة ، وكان عجبياً أن يصلح الحكيم بنفسه طفلته التي خاصمته ، ويبدو أنها تعودت على ذلك حتى بعدما كبرت وصار لها أولاد .

ورغم حاجز الرهبة الذي كان بين الحكيم وأبنائه إلا أنه في تلك المرات القليلة التي يدخل فيها طرفاً في حوار أو مناقشة تتعلق بأمر من أمور أولاده كان يتبع معهم أسلوب ديمقراطية الحوار بلا يخيفهم أو يرهبهم أو يفرض عليهم رأياً بل يدع متحدثه يقول كل ما عنده ثم يدلي بنصيحته له ويترك له حرية الاختيار دون ضغط كما فعل مع ابنه اسماعيل الذي اختار طريق الموسيقى رغم رغبة والده ليكون مهندساً ، وكما فعلت ابنته زينب في حياتها ، ومع ذلك فهو لم يعطها الإحساس بأنها أخطأت ، ويجب أن تتحمل مسؤوليتها وحدها ، بل إنه تحمل معها مسؤولية فشل زواجها ، وما

ترتب على وفاة زوجها الآخر ، من مشاكل ، ومع ذلك لم يكن يجب أن يجبرها على شئ يراه هو صحيحاً وأنسب لها من أى شئ آخر ، حدث مثل ذلك بعد حصول زينب على الثانوية العامة بتفوق ورأت أمها أن تقدم ابنتها أوراقها إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، رغم رغبة زينب في دخول كلية الآداب ، ولكنها أطاعت أمها ، وعندما علم أبها بالمجموع الكبير الذى حصلت عليه في الثانوية العامة قال لها : لم أكن أعرف إنك شاطرة إلى هذا الحد .. أصل انت دحيحة « ! ولم ينصحها بدخول الآداب ، ولكن زينب لم تستطع الاستمرار بكلية الاقتصاد التى لم تكن مقنعة بها ، فتقدمت إلى كلية الآداب قسم فرنسوى ، ووجد ذلك الاختيار ، ارتياحاً لدى والدها الذى بشرها بأنها سوف تنجح وتتفوق ماد امت قد اختارت الدراسة التى توافق رغبتها ، وشجعها إلى درجة أنه كان يأتي لها بالكتب الفرنسية من باريس ، وكان يأخذ أبحاثها ليعرضها على المختصين ، وكانت لديه رغبته في أن تستكمل دراساتها العليا ، ولكن حينما تعارض ذلك مع حاجة بيتها وأسرتها - وكانت قد تزوجت - وقف إلى جانب زوجها في أن البيت أولى وأحق بالرعاية .

ومن الغريب أن الحكيم هو نفسه الذى كان يبحث ابنته على العمل وكان يقول لها بعد أن استقر بها المقام بجواره في القاهرة : إنه لا توجد سيدة مثلها تجلس في البيت مضيعة حياتها بين جدرانها ، وإلا فما فائدة الشهادات التى حصلت عليها .. هل كان ذلك من أجل وضعها في الدولاب؟! . ويضرب لها مثلاً بمن حولها ، ويقول لها أنها أفضل منهن بكثير ، وأنها بعملها ستكون شيئاً ذا قيمة .

ولكن عندما تأتى زينب لتضع النقاط فوق الحروف ، وتستعرض مع والدها أنواع العمل الذى يصلح لها ، يتردد الحكيم ويتراجع ويأتى لها بقصاصات عمود « مجرد رأى » بصحيفة الأهرام ، والذى قاد فيه كاتبه

الصحفى صلاح منتصر حملة يرجح فيها أسباب عودة المرأة إلى البيت ، فتسأل زينب والدها: إذن ولماذا يشجعها على العمل؟، ومن غير أن يجيب تفهم أنه يريد ألا تأتى يوماً له تطلب العمل خارج البيت ، إنه يحثها على العمل رغم أنه يعلم تماماً أنها فى هذه الفترة بالذات من حياتها لا تستطيع أن تترك أولادها ، ولكنها تجارى والدها فتبدى استعدادها للعمل .. وهنا يسقط فى يده فيضع أمامها مائة سبب وسبب يرجح وجودها فى البيت على عملها خارجه ، فهى لو خرجت للعمل فستحتاج إلى مربية ، والمربية إن أعطت الأولاد طعاماً وشراباً فإنها لن تعطيهم الاهتمام والحب والحنان الذى لا تعطيه إلا الأم التى إن انشغلت بعملها فلن يكون لديها وقت تعطيه لأولادها ، فستعود بعد الظهر منهكة القوى .. فمن يتابع الأولاد فى مذاكرتهم ويوجههم فى حياتهم ؟. ويتابع الحكيم نصائحه لابنته مبينا لها أضرار خروجها إلى العمل : فستغيب ابنتك عنك وستقع فى أخطاء لبعذك عنها .. والولد ربما يقع مع أولاد السوء فيشرب سجائر .. ثم من يذاكر للأولاد ويتابع تقدمهم أو تأخرهم فى الدراسة .. إنهم بحاجة إلى تواجدك المستمر معهم خاصة أن لديك فتاة فى سن المراهقة وولداً على أبواب الدخول فى هذه السن .. ولديك طفل يحتاج إلى رعايتك وحنانك .. فلمن تتركينهم ؟

كانت معارضة الحكيم إذن لابنته زينب فى أن تعمل ليست معارضة لفكرة العمل فى حد ذاتها وإنما لفكرة أن العمل لا يتناسب مع كونها أم ، فما يحتاجه العمل من جهدها ووقتها يحتاجه أولادها ، أما حينها لم تكن زينب مشغولة سوى بنفسها فإنه لم يمانع فى عملها وإن كان قد تردد فى البداية ، مثلما حدث عندما كانت طالبة فى كلية الاقتصاد قبل أن تتركها إلى الآداب ، حيث كانت تعمل فى أجازة نصف السنة بأحد أجنحة معرض القاهرة الدولى للكتاب ، صحيح أن الحكيم اعترض فى أول الأمر لأنه

فوجئُ بابنته تعود في الساعة التاسعة مساءً فقال لها عندما اكتشف تأخرها في العودة إلى البيت : « الله .. الله .. راجعة الآن فقط في هذا الوقت .. كنت فين ؟ » ، فتقول له : إنها تعمل بمعرض الكتاب » ، فيقول لها مستنكراً : معارض إيه التي تجعلك تغييبين عن البيت طول النهار وتختلطين مع الجمهور وناس لا تعرفينهم »

وتحاول الأم التي كانت تقرر كل شئ مع أولادها ، أن تقنعه بأن عمل ابنتها في المعرض هو عمل محترم لا يسبب لها أى إحراج أو متاعب وهي مجرد أيام ينتهى بعدها المعرض » ، ولا يطمئن الحكيم إلا أن يتأكد بنفسه ، فيذهب إلى معرض الكتاب مصطحباً معه صديقه د . حسين فوزى ، فتفاجأ زينب بأنهم يرحبون من خلال المكروفونات بالكاتب الكبير توفيق الحكيم ، وينوهون من وقت لآخر بوجوده ، ولم يكن الحكيم يقصد زيارة المعرض ولكنه كان يريد الاطمئنان على طبيعة عمل ابنته فزارها في الجناح الذى تقف فيه وهي تتعامل مع الكتب وتتعامل معها الجمهور بما يليق بالمعاملين مع الكتب من أخلاق ، ولم يجد الحكيم بأساً من استمرار ابنته في عملها بالمعرض ، ونظر إلى صديقه د . حسين فوزى ليلفته إلى زينب مشيراً إليها قائلاً « هذه ابنتى » .

ولم يكن قلق الحكيم على عمل ابنته إلا لأنه كان يعرف طبيعة شطحاتها ، فهي لا تختار أعمالاً تقليدية أو هوايات تقليدية ، أو كما يقول لها « أنت لا تخطين ولكنك تقفزين ، لأنها في بداية دخولها الجامعة أرادت أن تتعلم « فن الرقص ، وكانت تذهب للفرجة بمسرح البالون ، وتسعى للعمل بفرقة رضا للفنون الشعبية ، مما أصاب الحكيم بحالة من الرعب والفرع جعلته يقول « ابنتى تطلع راقصة ؟ وسمعتى ! » ، ويطلب من أمها لقرئها منها أن تلتفت نظرها إلى أن هذا عبث ، ويجب أن تلتفت لدروسها بدلاً من هذا الكلام الفارغ الذى سوف يجعلها تزوغ من

محاضراتها .. ألا يكفي أن الولد إسماعيل سكننا له على المزيكا .. البنات أيضا .. وإيه راقصة « ؟!

ولذلك كان الحكيم متعجباً لإتمام زواج ابنته ، ولم يعن هذا أن يوافق على زواجها أى زيجة والسلام تخلصاً من شطحاتها المزعجة له ، فجاء زواجها - إلى جانب دراستها التي لم تكن قد انتهت منها بعد - لتتنشغل بأولادها ، ومع وجودهم الذى أضاف إلى حياتها أعباء جديدة ، لم يعد هناك ما يدعوها للتفكير فى العمل لغيرهم ، وقد شعر الحكيم بأهمية وجود المرأة فى البيت ، مع وجود ابنته مع أبنائها ، وزمان كان من أنصار المرأة للبيت والبيت للمرأة لأنه كما يقول : « الأم هى الحقيقة الكبرى فى تركيب المرأة ، وهذه العاطفة وحدها تتسلط على كل الكائنات » ، كانت القضية نظرية بالنسبة للحكيم ، أما الآن وهو يرى أهمية ابنته فى الحفاظ على كيان أسرتها وبيتها (ومن قبلها أمها التى حملت عنه عبء البيت والأولاد وإن لم يكن متبها ليدرك ذلك لانشغاله) فقد انتقل اقتناعه النظرى إلى اقتناع عملى بعد أن رأى وشاهد وعان ، باندماجه مع ابنته وأولادها ، إنهم لا يستطيعون أن يتناولوا طعاماً إلا فى وجودها ، وكان الحكيم يرى أنهم فى حاجة إلى تجربتها وتوجيهاتها حتى لا يقعوا فى أخطاء فى حياتهم ، فالولد إسماعيل يأتى من مدرسته متلهفاً على أمه يأتىها صوته من الأسانسير « مامى » ، والبنات مريم فى بحاجة لإرشادات أمها وهى فى هذه السن الحرجة .. سن المراهقة .. حيث تسأل الابنة ، وأمها تجيبها وتحدثها بالساعات عن حياتها وما بها من أخطاء كى تتجنبها ولا تقع فيها .

لقد رأى الحكيم بالتجربة .. الأهمية الحيوية لوجود الأم فى بيتها مع أولادها ذلك الوجود الذى لا تغنى عنه جدة أو شغالة ، لم يكن الحكيم قد مر بهذه التجربة من قبل لانشغاله فى عالمه الخاص أما الآن فإنه يعيش

التجربة كاملة مع إبنته وهو في أخريات عمره بعد أن تخفف كثيرا من أعباء أوراقه وقلمه .

* * *

وإذا كان الحكيم كالحاضر الغائب غالبا ، في أمور أسرته التي انفرط عقدها بوفاة الزوجة والإبن ، إلا أنه كان حاضراً دائماً في أمور أسرته الجديدة المكونة من إبنته وأولادها ، وكان حضوره سبباً في حدوث احتكاكات وخلافات ، فقد راح يتدخل في شئون إبنته بصورة متزايدة ، فله وجهة نظر في نوع ولون ملابسها ، وطريقة تصفيفها لشعرها ، بل وطريقة صلاتها ، وإن كان الأخطر عنده هو استمرارها في التدخين ، فهو لا يميل ينصحها بالامتناع عن السجارة لأن نتيجتها إصابتها بالسل الرئوى وسرطان الرئة ، ويدلل على صحة كلامه بقصاصات الصحف التي تتحدث عن أضرار التدخين ، ويحثها على قراءة ما تضمنته الحملة الجديدة التي يقودها الكاتب الصحفى صلاح منتصر ضد التدخين .. الخ ، فقد خشى الحكيم أن يسوء مصير إبنته بقرعها في التدخين ، كما ساء مصير إبنته عندما غرق في الخمر ، ولكن محاولاته مع إبنته كانت كالحرث في الماء ، فأراد أن يحاول مرة أخرى ولكن بشكل عملي قوامه الحافز والإغراء ، فوعدها إن امتنعت عن التدخين فسيكافئها مكافأة كبرى ، وطمعا في المكافأة وشوقا إليها تظاهرت زينب بالامتناع عن التدخين أمام والدها ، وإن لم تمتنع من ورائه ، واستمرت على هذا الحال شهرين وثلاثة إلى أن اطمان الحكيم بأنه لم يعد يراها تدخن ، فأعطاه ألفاً من الجنيهات ، وحتى تظل محافظة على ثقة الحكيم لم تعد تدخن على الأقل أمامه ، ولكنها كانت تشعر بقميد يمنعها من حريرتها في التدخين ، لأن والدها معها أغلب الوقت جالسا في البيت ، وإن كانت تحاول أن تختلي بنفسها في

حجرتها بعض الوقت لكي يمكنها أن تشعل سيجارة ، وكان ذلك غالبا ما يكون في وقت تتظاهر فيه بالرغبة في الراحة أو الاسترخاء على سريرها ، حتى فوجئت ذات يوم بخطوات الحكيم ودقات عصاه تتجه نحو حجرتها ، والسيجارة في يدها ، فقامت بإخفائها بسرعة تحت اللحاف ، حتى لا يكتشف أمرها ، وكان عادة ما يأتي إليها كلما دخلت إلى حجرتها ليظمن عليها وهو واقف على الباب ، ليتبادل معها كلمة أو كلمتين ثم يمضي ، ولكنه هذه المرة دخل وجلس ، فاضطرت لاستخدام سلاح العطس الذي يخشاه الحكيم ويخافه ، فافتعلت ، « العطس » ، ليقوم الحكيم على إثره موليا وجهه خارج حجرة زينب حتى لا تصيبه العدوى ، ولكن الحكيم كان قد أحس بسر زينب مع سيجارتها ، فقد كان يلاحظ قلقها ويراقب عدم ارتياحها بعد فراغها من الطعام بينما هي مخرجة من ترك والدها أثناء اشتباكه معها في أحاديث مختلفة لم يكن يحلو له إثارتها إلا حين الجلوس على مائدة الطعام حيث يمكن للحوار أن يمتد إلى ثلاث وأربع ساعات ، وتكاد زينب أن تموت أمام رغبتها الجارفة لإشعال سيجارة بعد تناولها الطعام ، فاستأذنته ذات مرة لقضاء حاجتها بعد أن استطل الحديث وحمى وطيسه ولم يعد هناك أمل قريب لزنب في إنهائه ، ففوجئت بوالدها يطلب منها الجلوس ، وقال لها : لا داعي للانصراف .. اجلسي ودخني .. ألم تحصلي على الألف جنيهه !؟

* * *

وعندما يرى الحكيم ابنته كاشفة شعر رأسها يقول لها : ألم تكوني متحجبة .. خلعت الحجاب ليه ؟ فتقول له : من كثرة سخريه حضرتك من المحجبات ، فينفي ذلك ويقول : لا .. لا .. أنا لم أقل لك اخلعى الحجاب ، فتقول له : أنا أنوى ارتدائه حينما أقتنع تماما لأنني مترددة ،

فيقول لها : ارتدى الحجاب ولا داعي للتردد . ، وحين تستعد للصلاة يجدها ترتدي فستاناً وتحتها بنطلون ، فيقول لها : ولماذا البنطلون مادام الفستان طويلاً ؟ فتقول له : لأن في الفستان فتحة في أسفله تبين قدمي . ، فيقول لها ساخراً : هو يعني ربنا سيترك الكون كله ولا يشغله غير فتحة فستانك !؟ وعندما تلبس البيجاما لتخفي بها كل جسدها أثناء الصلاة ، يلاحظ الحكيم أن البيجاما تكاد تنفتق لضيقها مما يحدد ملامح جسد زينب فيقول لها : ما هذا .. ترتدين بيجاما ضيقة لإغراء من !؟.....!؟

وحين تدخل في صلاتها ويقبل عليها طفلها « محمد » يداعبها ، فتتضايق لأنه يعطلها عن مواصلة صلاتها ، فيقول لها الحكيم : دعيه يلعب .. إنه يفعل معك كما كان يفعل الحسن والحسين مع جدتهما الرسول ﷺ حينما كانا يمتطيان ظهره فلا يتحرك من سجوده قبل أن يتركانه حتى لا يزعجهما .

ومن هذا الفهم والحرص على مشاعر الأطفال استسلم الحكيم لحفيديه إسماعيل ومريم لعله يعرض معها ما حرم منه أبناءه في طفولتها ، فقد طلبت مريم من جدتها أن تصفف له شعره بمعاونة أخيها إسماعيل ، وراحت تصنع له مفرقا في رأسه يقسم شعره قسمين عن يمين وعن شمال ، وراحت تضفر ما استطاعت من خصلات شعر جدتها وتضع فيه « توكات » كانت تحببها ، ولم تكتف بذلك ، بل قامت بتصفيف شاربه إلى أعلى !. ولم يعترض الحكيم بل طاوعها لتمسكه من يده هي وأخيها ليقتادا إلى حجرة والدتها التي فوجئت مذهولة بهذا المشهد العجيب .

لذلك كان الحكيم ينصح إبنته ألا تزعج طفلها محمداً وهو يداعبها أثناء صلاتها .

وهكذا كان فراغ الحكيم لإبنته وأحفاده ، يجعله يتدخل دائماً في

شئونهم ، مرة بالسخرية ، ومرة أخرى بالنصيحة ، ومرة ثالثة بالثورة عليها ، حتى قالت له ذات مرة :

يا بابا حتى لو كنت زوجي لم تكن ستعاملني هذه المعاملة .

فقال لها : أنا أكثر من زوجك فلي السلطة الكاملة عليك » .
ورغم ضيق زينب بتدخلات والدها في تفاصيل حياتها إلى درجة الثورة عليها في بعض الأحيان ، ألا أنها كانت تلتزم الصمت إلى أن ينتهي من إعطائها دروساً يؤنبها فيها أو يلومها على ما يرى أنها أخطأت فيه ، فتتحمل كاظمة غيظها ، حتى ينتهي من كلامه ، فتخرج بعيداً عن المكان الذي هو فيه ، لتعبر عن غضبها من والدها دون أن تسميه وإنما تُكني عنه بلفظة « أنتم » ، فهي لا تستطيع أبداً أن ترفع صوتها أمامه ، أو تواجهه صراحة وهي تتحدث بغضب وانفعال .

منتهى الاحترام .

ولا يستطيع الحكيم أن يجعل ابنته تظل غاضبة منه لأكثر من عشر دقائق ، فيذهب إليها بحجة أنه يريد شيئاً من حجرتها ، بينما هو لا يريد شيئاً سوى مصالحتها ، فيسألها عما تفعل ، ثم يجلس بجوارها على سريرها ، الذي كان كلما جلس عليه لمشاهدة التلفزيون ، وقع لعدم وجود مسند له ، فتسارع إلى انقاذه وشده إليها بعصاه ، رغم تحذيرها له في كل مرة أن السرير لا ظهر له ، ويفتح الحكيم حواراً مع ابنته ، وإذا لم يذهب إليها يناديها وكأن شيئاً لم يحدث ، أو يحاول إقناعها بوجهة نظره فيما أثار غضبها ، وفي النهاية تجد زينب أنها كانت مخطئة ، وتقتنع بصواب رأى أبيها في أغلب الأحوال ، وإن أتى ذلك متأخراً .

ولا يريد الحكيم أن ينتهي حوارهِ مع ابنته حتى عندما يأوى كلاهما إلى سريره ، فالحجرتين متقابلتين ، ومن تحت اللحاف ينادى الحكيم ابنته ، بينما هي مستدفئة على سريرها تشاهد التلفزيون ، فتطلب منه أن يجيء

هو ، فيقول لها إنه يريد لها في شئ مهم . فتسأله ما هو ؟ فيخبرها أنه لن يقول لها عليه إلا حينما تأتيه ، فتقول له بل إنها هي التي تريده في شئ أهم ، ويتبادلان الحوار عبر الحجرتين من خلال سريريها ويحاول كل منهما أن يجذب الآخر إليه للجلوس والحوار معه .

وقد أدرك الحكيم طبيعة إبنته واعتداها بنفسها ، فلم يعد يلجأ للأسلوب المباشر لتبهيها لخطأ يراه ، أو توجيه نصيحة بشأنها أو بشأن أولادها مما يمكن أن يحدث احتكاكاً يؤدي إلى إثارتها وغضبها ، وإنما كان يستخدم موهبته القصصية في تأليف قصة من خياله ينتهي منها إلى العبرة أو الغرض الذي يريد أن يصل إليه ، فتفهم إبنته مقصده سواء كان نصيحة أو نقداً أو توجيهاً .

وكم كان الحكيم يسعد حينما يدخل على زينب ويجد كتباً بجوارها ، وكم كان يصدم حينما يعرف أن وجود هذه الكتب لا يعني في كل الأحوال أنها كانت تقرأ ، ولكنه اكتشف أن لها اهتمامات أدبية أكبر مما كان يظن ، فهي تناقشه بل وتنتقد مؤلفاته ، وهو يستمع ولا يضيق بالنقد ، فصدره رحب لتقبل الرأي الآخر ، فتقول له مثلاً إن بعض أفكاره في بعض كتبه معادة وهذه الفكرة أو تلك نقلها عن الكاتب الأجنبي الفلاني ، وذات مرة قالت زينب لوالدها : إنها ستعد دراسة عن الزمن عند « سارتر » ، فيطلب منها أن تعد دراستها عن الزمن عنده لأنه سبق « سارتر » ، ولكنها تكون مقتنعة بأن سارتر هو الأسبق عن الحكيم ، ورغم أنها لن تعد دراسة ولا شيئاً إلا أنه حوار يدور بينها وبين والدها كأنها تريد أن تؤكد له أن نشأتها في بيت « المفكر الكبير » لم تضع سدى وأنه قد أثمر ثماره في قدرتها على مناقشته ، بل ومعارضته ونقده ، ورغم أن هذه المناقشات الأدبية كانت تحدث مرة كل أسبوع تقريباً إلا أن المناسبات كانت تفرض

نفسها من طبيعة الحياة ذاتها وتفجر مناقشات بين الحكيم وابنته حول قضايا سياسية واجتماعية ودينية واقتصادية .

* * *

فعلى مائدة الطعام تأتى سيرة الأسعار النارية الملتهية .. فهذه « البامية » التى يأكل منها الحكيم تقول له زينب « تصدق يا بابا الكيلو منها بسبعة جنيهات » ! فيذهل وتتوقف اللقمة ، فى يده أو فى حلقه حسبما يكون موضعها ويسأل فى دهشة عن السبب « ليه يعنى ؟ » فتخبره ابنته : لأن البامية فى بداية ظهورها .. فيقول الحكيم : ولو .. ويكون حديث « البامية » غالية الثمن ذات الجنيهات السبعة مدخلا لمناقشة اقتصادية يحلل فيها اقتصاد البلد ويقارن بين زمان والآن وكيف أن هذه الجنيهات السبعة كانت تفتح لصاحبها بيتاً وتكفل معيشة أسرة شهراً .. فما الذى أوصلنا الآن إلى هذا الوضع الذى كان سبباً فى جنون الأسعار التى لا ضابط لها ولا رابط ؟. إنه سوء التخطيط فى التعليم وفى توزيع الخريجين ، فالجامعات كل عام تخرج آلافا ينتظرون خطابات القوى العاملة لتعيينهم موظفين ، ومع كثرتهم لا يجدون لهم مكاتب ، ثم إنهم لا ينتجون لأن عمل الواحد منهم يؤديه عشرة .. إذن فكان يجب على الدولة أن تعرف احتياجاتها ، وتخطط لنظام التعليم على أساس هذه الاحتياجات .. وأن تتجه بالخريجين لها لا إلى المكاتب ولكن إلى الصحراء لاستصلاحها .. ولكن مادامت الجامعات تقوم بتخريج موظفين يتقاضون مرتبات على أعمال لا يقومون بها فسوف تزداد ديون الدولة .. فتضطر لرفع الأسعار ..

وبالتالى تزداد ديون الموظفين أيضاً لأن مرتباتهم لا تتوازى مع الغلاء .. فلم تعد الوظيفة الميرى مغرية مثل زمان حينما كان يقال « إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » ، فقد صارت أجرة الشغالة أكبر من مرتب

الموظف وأستاذ الجامعة بل أكبر من معاش الحكيم نفسه الذى هو أكبر مفكر فى مصر والوطن العربى ، وقد جرب الحكيم أن يأتى بشغالة فراحت تفرض عليه شروطها ، إنها تريد أن تحضر يومين فى الأسبوع وأن تأخذ أجرها مقدما حتى تستطيع أن تذهب إلى الفيوم لتدفع لإبنها الذى يعيش هناك ثمن الدروس الخصوصية التى يأخذها ، حيث أنه فى الثانوية العامة ويريد الحصول على مجموع يؤهله لدخول الجامعة ، ويرى الحكيم « أن الحكومة قد أفسدت التعليم ووقعت فى تناقض مع نفسها حينما تطلب من الطالب أن يحصل على ٧٠ و ٨٠ و ٩٠ ٪ ليدخل الكلية التى يريدونها دون اعتبار للقدرات والمواهب والميول ، مما يجعل الطالب يلجأ للدروس الخصوصية وبذلك لم يعد التعليم مجانيا كما يقول شعار الدولة الذى ترفعه ، إنه شعار كاذب ، فلا توجد مجانية .. يجب على الدولة أن تعترف بهذا .. وألا تتخذ نفسها مبدأ كاذب ينقضه الواقع ، ولكنه الكذب الذى أصبح عملة سائدة فى السوق فلم نعد نقول شيئا صادقا أبداً ، وعلى الدولة إن أرادت إصلاحاً للتعليم أن تعترف بشجاعة أنه لم تعد توجد مجانية وأن تعود بالتعليم كما كان من قبل بمصروفات ، ولكنه كان تعليماً مضبوطاً .. أخرجت لنا المرحلة الابتدائية منه .. العقاد ، أما التعليم الآن فلم أعد أثق فيه ولا فى كلياته أو معاهده .. التى تلقى بخرابيتها للقوى العاملة لتوزعهم دون خطة أو تقدير لاحتياجات البلد .. ومن يوم ما أصبح عندنا كلية اسمها كلية الإعلام لم يتخرج منها إعلامى ناجح .. كان زمان يكفى لمن يريد العمل فى مجال الإعلام أن يكون موهوباً ويعمل مع إعلامى قديم « يشرب منه الصنعة » كما يقولون .

والتعليم المجانى الذى ينتقده الحكيم لتحويله عن هدفه ومضمونه بانتشار الدروس الخصوصية هو الذى دعا الشغالة التى أتت للحكيم أن تطلب منه مائتى جنيه مقدما فى الشهر ليومين فقط فى الأسبوع تقضيها

لخدمته ، كى تتمكن من السفر لابنها وتسديد ثمن دروسه الخصوصية ، ولكنها مجاملة للحكيم لن تأخذ منه سوى مائة وخمسون جنيها فقط لأن المحروس ابنها رآه فى التليفزيون ، هكذا قالت الشغالة لتوفيق الحكيم الذى دهش لهذا التطور العجيب الذى حدث فى المجتمع ، وراح يتحدث إلى صديقه ثروت أباطه .. فى التليفون : تخيل الشغالة النهاردة تتقاضى ١٥٠ و ٢٠٠ جنيه !، يتعجب الحكيم لأن مثل هذا المبلغ أكبر من معاشه وهو شيخ المفكرين ، ولكن لماذا العجب ؟ لقد تغير الزمن وانقلب المجتمع الذى أصبحت فيه الشغالات يعلون مكانا ماديا متقدما فى سلمه الهرمى ، وجاء الزمن الذى أصبحت فيه الشغالات موضوعا لنقاش بين كبير الكتاب العرب وصديقه الروائى الأديب يوسف جوهر ، حينها جلسا ذات يوم أمام شاشة التليفزيون ، فشاهدا ، « مذبة » تجرى حواراً فى الطريق مع فتاة (لمضة) تجيد التعبير بالعين والحاجب (توقعا) أن تكون ممثلة صاعدة .. اتضح أنهاشغالة (فقال يوسف جوهر) أتوقع أن تصل هذه الفتاة الفصيحة إلى مقاعد مجلس الشعب .. هناك نسبة خمسين فى المائة للعمال والفلاحين !

(قال الحكيم) لا يبدو عليها أنها عبيطة لتفعل ذلك .. ستقارن بين مكافأة المجلس ومكافأة الخدمة فى البيوت .. (وأضاف الحكيم ضاحكاً) لا تنسى أن المجلس لن يقدم لها طعاماً أو بدل طعام .. أما فى البيت فإن ربة البيت تحرص على رضاها وتساؤها متوددة .. ماذا تفضل فى فطورها ، وهل تحب البيض مقلياً أم مسلوفاً .. أم برشت .. أم عجة بالخضروات .

(قال يوسف جوهر جادا) : آخر شغالة وفدت علينا اشترطت أن تجرب العمل بضعة أيام .. وتأفقت عندما رأت سخان البيت معطلاً .. وتبين أنها موسوعية ومغرمة بالدراسات المقارنة .. تعرف أن القلبينية

تتقاضى نصف مرتبها بالدولار ، ونصفه بالعملة اللبنانية ، وأن الخادمة في بلاد برة تجلس إلى المائدة مع الأسرة وأن غرفتها مزودة بتليفزيون خاص ، وتستطيع أن تدعو خطيبها في وقت راحتها ليلعب معها الكوتشينة ، ولم تعد الموسوعية في اليوم التالي .. الأمر الذي يقطع أننا - أنا وزوجتي والعيال - لم نعجبها ولم ننجح في كشف الهیئة .

(قال الحكيم) : احمد ربك أنها لم تعرف ما نتقاضاه عن مقالاتنا .. لو عرفت لسقطنا من عينها .. وربما وضعت مبلغاً في مظروف وتركته على حافة حوض الغسيل على سبيل المساعدة ، (قال يوسف جوهر) قيادة الرأي العام صارت أقل ثمناً وجدوى من قيادة المطبخ .. زمان كانت تعتبر فضيحة اجتماعية أن يتزوج شاب وابن ناس .. شغالة ، الآن حسب نظرية النشوء والارتقاء سيكون عادياً أن يتزوج المثقف شغالة للمحافظة على مظهره الاجتماعي .. وستنظر في أمر صعوده إلى طبقتها .. ربما تقبل وربما ترفض . (قال الحكيم ضاحكاً) : وربما تكثر حالات تعدد الزوجات .. يتزوج حامل الدكتوراه الذي تمنحه الدكتوراة علاوة عشر جنيهات ، من اثنتين .. واحدة للضروريات المادية وواحدة للحياة الزوجية ، وأنا نائب في الأرياف كان القاضي يتزوج من بنت العمدة وهي لا تعرف الألف من كوز الذرة ، لأن دخل الأطيان يساعده على إقامة المآدب للمدير والمحكمदार والحكيمباشى .

ويعجب الحكيم أيضاً من أن الشغالة لا تحب من يسميها « خادمة » - ويقول - مع أن في الشرع يقال « سيد القوم خادمهم » ، وأن النبي ﷺ كان يذكر كلمة « الخادم » موصياً به خيراً ، كذلك فالموظف في البلاد الأجنبية يسمى « خادم الدولة » ، ولكن « الخدم » عندنا لا تعجبهم الكلمة فيغيرونها من باب المدنية والتطور إلى « شغال » أو شغالة .

ورغم أن الحكيم في الثمانينات من عمره إلا أن مستقبل بلاده يشغله حتى في طعامه وشرابه حتى عندما يرى أى شوائب في السكر .
يقول : ما الذى جرى لمصر ؟ وتهزه المفارقات العجيبة في المجتمع واختلال الهرم الاجتماعى فيتساءل : كيف تسير البلد وإلى أى شىء سوف تصل ؟

فتسمع ابنته زينب تساؤلاته ، وتحاول أن تخفف من همومه وانشغاله بالغد الذى لن يكون موجوداً فيه ، فتقول له : ياأبا انت مزعل نفسك ليه بالمستقبل الذى أنت مشغول به .. إنه ليس مشكلتك ولا حتى مشكلتى وإنما هو مشكلة أولادى .. أحفادك .. وعليهم أن يواجهوه وحلوا مشاكله .. فما شأنك أنت ولماذا تشغل نفسك بمستقبل هو لغيرك ؟
فيقول الحكيم ولم يعجبه كلام ابنته : هذه هى المشكلة .. كل واحد يعيش لنفسه فقط .. كل واحد يفكر لنفسه فقط ولا يفكر مع غيره أو لغيره ، لأن الذى يحدث عندنا حتى الآن هو أنه إذا اجتهدت في بناء الطابق الأول وانتظرت أن يأتى آخر فيضيف إليه طابقاً آخر وجدت الذى جاء قد ترك طابقك كما هو إن لم يكن يهدمه ويبنى هو بناء آخر مستقلاً في مكان آخر باسم آخر .. وذلك لأننا لا نعرف غير النظرة الشخصية الانفرادية ، ولهذا فإن طبيعتنا تشبه طبيعة الصراصير التى تسير وتعمل كل منها على انفراد ، أما النمل فيعمل بطريقة جماعية في طوابير وجماعات وبذلك يستطيع أن يحمل حشرة أو غذاء أكبر منه حجماً وقوة ، أما الصرصار فلا يستطيع أن يحمل شيئاً لأنه منفرد بنفسه . هكذا مجتمعنا اليوم « مجتمع صراصير » .. كل فرد يعتبر نفسه لا شئ قبله ولا شئ بعده .. كل فرد يعتبر نفسه مجتمعاً قائماً بذاته .. لذلك انتشرت السلبية واللامبالاة .. كل واحد يقول « وأنا مالى » .. مليش دعوة .. « هو أنا

الذى سألح الكون » .. ومادامت هذه الروح الأثانية تركبنا فلن نحل مشكلة واحدة من مشاكلنا .. يعنى يبقى انتهينا .

ورغم أن الحكيم يشعر بأنه كمن يؤذن في « مالطة » التى تبنى فيها المساجد ويرفع الآذان دون أن يوجد بها مسلمون يلبون ، أو كمن « ينفخ في قرية مقطوعة » يذهب كل جهد فيها هباء ، أو كما يشبه الحكيم نفسه « بالبوسطجى » .. ساعى البريد .. الذى يحمل رسالة ويدق على الأبواب ويصيح « بوسته » .. فيسمع من يقول له : اللى فى البيت عزلوا ولا نعرف عنوانهم .. رح لحالك من فضلك وكفاية دق على الأبواب وجعت لنا دماغنا !

ورغم أن الحكيم يشعر زمنياً عل الأقل أنه أشبه بأبطال مسرحية « أهل الكهف » الذين وجدوا عالماً غريباً عليهم لا يستطيعون مجاراته أو التواؤم معه أو العيش فيه ، فقد انتهى عصرهم وليس أمامهم من اختيار سوى العودة إلى « المتحف » .. فإن الحكيم يعتبر نفسه طالماً أنه محسوب على الأحياء ، فهو مكلف أن يعيش لمجتمعه حتى آخر نفس من أنفاس حياته ، فتشغله هموم الوطن والمواطن .. لأنه كشخص .. كإنسان .. لم يعد له مطمح أو مطمح فى الحياة فقد أعطاها وأعطته ولكنه كمفكر عظيم لا يمكن له أن يبخل بفكره على بلده حتى يتوقف فكره عن النبض .. ليس المهم أن يقطف ثمار فكرة يزرعها .. يكفيه أن يقطفها أبنائه أو أحفاده .. وهو يرى أن مشكلة الأبناء والأحفاد التى تورقه هى « الديون » .

تداعبه إبنته زينب وتساءله : وكيف نسدد ديوننا يا بابا ؟

ولم يشأ الحكيم أن يجيب فى البداية وراح يختبر فكر جيل ابنته .. أليس هو الجيل الذى عليه أن يفكر ويتحمل مسئوليته ؟ .. فأعاد الحكيم عليها

نفس سؤالها ، فأرادت استفزازه فقالت له ساحرة وقد ظهرت على ملاحظها ما يظهر على وجه المرأة حين تمكر : إيه رأيك يا بابا لو نسمح بقاعدة « أمريكاني » مقابل ما نحصل عليه لنسد ديوننا !

فقال الحكيم منزعجاً : انت عايزة تببعي بلدك ؟

قالت زينب متخابثة : أصل المسألة تكون « دكايني » في السر يعني .

فقال الحكيم وقد علت نبرته : كيف تفكرين وبأى منطق تتكلمين ..

أتريدين للاستعمار أن يعود من جديد مثل زمان ؟

قالت زينب : هل تظن أن استعمار اليوم مثل استعمار الأمس يأتي

ليقعد لنا .

فغضب الحكيم من هذا الفكر المدمر وانزعج من أن يوجد في المجتمع

بل في بيته من يفكر في هذا الجيل بهذا اليأس والضياع ، وقال لابنته منها

المناقشة : يبدو أنه قد أصابك مس من الجنون . والتزم الصمت ، ولكن

زينب عادت لمعاكسته من جديد وقد اطمأنت إلى أن عقل شيخ المفكرين

لم يمسه الوهن أو الضعف أو يعتل كجسده ،

فقالت : مادام لا يعجبك رأيي فقل لي أنت كيف نسد ديوننا ؟

قال الحكيم : بالانتاج

قالت الابنة وقد عادت لسابق مكرها : الانتاج ؟ هه موت يا حمار !

فيقول الحكيم ولم يفقد الأمل : وإيه يعني .. موت يا حمار حتى نسد

ديوننا .. ننتج ونتوسع في الصحراء ونفعل مثلما فعل السلطان قابوس في

سلطنة « عمان » .. تقوم شركات أجنبية باستثمار أموالها في استصلاح

الأرض والبناء وتستفيد من عائدات مشروعاتها لوقت محدد ومعلوم يتم

الاتفاق عليه ثم بعد ذلك نقول لها « بالسلامة » .. ويصبح كل شئ بعد

ذلك ملكا خالصا لنا .. ولكن في البداية والنهاية لن يسدد ديوننا إلا إنتاج

عقول وسواعد أبناء مصر .

وحينما تعود زينب لتسأل والدها : ولكن لا أحد اليوم ينتج ؟
يقول الحكيم : لأن الدولة تركز اهتمامها على التعليم الجامعي دون أن تهتم بالتعليم الفنى ، وتكون النتيجة هى امتلاء دواوين الحكومة بالموظفين غير المنتجين .. فكيف يأتي إنتاج من موظفين قاعدين على مكاتب ، وكثيرين منهم لا توجد لهم مكاتب .. وسنجد فى كل مصلحة حكومية عمالة زائدة وبطالة مقنعة .. والجميع يقبضون مرتباتهم من الدولة ولا يهتمون إلا بالحوافز التى يحصل عليها العامل والمخامل ثم بعد ذلك نشكو من الديون .. هذه هى النتيجة الطبيعية لمجتمع يستهلك ولا ينتج ويأخذ دون أن يعطى .. فتتراكم الديون ولا نستطيع حتى سداد فوائدها .. بل حتى القروض التى تقترضها كل وزارة لا تحسن استثمارها .. بل إن بعضها لا يتذكر القرض إلا بعد فوات المدة المطلوبة لاستخدامه .. وميزانيات لوزارات لا ترشد استعمالها .. والله .. يقسم الحكيم منفعلًا - لو كنت وزيراً للمالية لفعلت ما يجب أن يفعله أى وزير مالية عنده شئ من الفكر .. يضيف الحكيم متصوراً نفسه وقد أصبح وزيراً للمالية .. سأطلب ميزانية الدولة لا لكى أقرؤها ولكن لأشطب نصفها بالقلم الأحمر .. فبدلاً من إنفاق مائة ألف فى بند من البنود يُكتفى فقط بإنفاق خمسين ألفاً .. سيقولون لى هذا غير ممكن لأن عندنا مشروعات كذا وكذا .. سأقول لهم نصف ما عندكم يكفى وزيادة إذا أنفقتموه بضمير وإخلاص .. لأن الذى يحدث أن أى مشروع ينفق عليه أضعاف تكلفته الحقيقية لأن « اللى طالع واللى نازل عايز فلوس .. لم يعد الناس يتحركون أو ينامون إلا بالفلوس .. لازم هذه الفوضى تنتهى وكل واحد لا يأخذ أكثر من حقه ، ومن يريد أن ينام ولا يعمل فلينم مجاناً والمكاتب مليئة بالنائمين ولا بد من إيقافهم بأنه لا يوجد فلوس ولا حوافز إلا لمن يعمل وينتج .. لازم يكون هناك شئ ضاغط ليفيق النائمون والكسالى ..

ولكننى الاحظ أنه فى بلدنا وكل البلاد الديمقراطية أن صاحب الصوت العالى ويقدر « يزعم » فى الصحافة أو فى الشارع .. الحكومة تسجد له .. حدث هذا فى فرنسا عندما شرعت الحكومة فى إصلاح التعليم بإحداث بعض التغييرات فيه ، فقام الطلبة بصرخون وفرضوا بصوتهم العالى على الحكومة أن تراجع .. وهذا الصراخ هو أيضاً الذى يجعل حكومتنا تخشى طرح مسألة إعادة النظر فى مجانية التعليم .. ولكننا نحتاج إلى نموذج الحكومة الإنجليزية فيما تراه لازماً لمصلحة المجتمع .. فعندما أراد عمال المناجم أن يفرضوا شروطهم على الحكومة وأن يظهر رئيسهم زعيماً فى الشارع البريطانى .. تصدت لهم المرأة الحديدية - تاتشر - ولم تخضع لصراخهم ، ولكن أغلب النماذج فى البلاد الديمقراطية هو أن الحكم للصوت العالى والصراخ ، فأصبح بإمكان أى واحد أنه يجمع بعض الناس من الشوارع أو يعملوا اضطراب فتهتز الحكومة وتستجيب لمطالبهم .

وتسأل زينب : ولكن ماذا تفعل الدولة .. ألا توجد ديمقراطية .. ويجب على الحكومة أن تستمع للرأى الآخر ؟

يقول الحكيم : الحكومة تستمع للرأى الآخر لو كان فيه مصلحة لغالبية المجتمع .. لأن الديمقراطية لا تعنى أن الحكم للصراخين والزاعقين .. والديمقراطية لا تعنى المجانية للراسبين .. والديمقراطية لا تعنى حوافز للنائمين .. الديمقراطية هى ما يحقق مصلحة الجميع .. ولا أدرى حتى الآن لماذا تتمسك الدولة بتعيين الخريجين عن طريق القوى العاملة .. ويبدو أن ذلك لأنها عودتهم على أن تعلمهم مجاناً وتوظفهم مجاناً دون أن تأخذ منهم مقابل من عمل أو إنتاج فأصبحت الدولة تطعم الناس وتنمهم وتعطيهم حوافز أيضاً .. يضيف الحكيم ضاحكاً - ويبدو أن الدولة لها مصلحة فى نوم الشعب تفوق مصلحتها فى الحصول على إنتاج منه ، وهو أن تشغله لكى لا يشارك فى أمور الدولة بما يراه من الخبطة فى سياستها .. برأى قد

يخالفها ، فهي تعمل بالمثل القائل « اطعم الفن تستحي العين » .. وإذا كان هذا يصلح في ظل حكم ديكتاتوري فإنه لا يصلح في ظل حكم ديمقراطي .. فالشعب الآن يرى ويسمع ويتكلم .. خلاص الشعب كبر ويجب على الحكومة أن تشركه في سياستها وتقول لمن يريد أن يتعلم بجانا أن يتفوق .. ولمن يريد أن يأكل أن يعمل ، والذي ليس له مكان في الوادى الضيق تعطيه الأرض في الصحراء ليستصلحها ويزرعها وبينها .. وليفعل الشباب مثلما نرى في بعض الأفلام الامريكية كيف بنوا أمريكا .. فوجد رجلاً وزوجته وأولاده أقاموا في مكان كصحراء « نيفادا » وبنوا « كشكين » خشب كمنزل مؤقت يأويهم ، ودقوا « ترمبة » ماء ، والزوجة تطبخ وتساعد زوجها في الاستصلاح والبناء ، ومعها بندقية لتدافع عن نفسها أمام الهنود الحمر حينما يغيب عنها زوجها .. فنرى أن هذه البلاد صارت دولة كبيرة مكتفية ذاتياً .. وهى أصلاً صحراء .. كل هذا بجهود أبنائها .. فلماذا لا نقلد غيرنا فيما يفيدنا ؟ إننى أرى أشياء عجيبة .. ذهبت مرة إلى باريس منذ حوالى ثلاث سنوات وجاءنى شاب مصرى ومعه زميل له .. وكنت جالساً على قهوة فأقبل علىّ وقال : إنه يقرأ لى ، ثم دخل فى الموضوع وهو أن لديه مشكلة ، وهى أنه يحصل على ما يساوى ١٠٠ أو ٢٠٠ جنيه بينما الفرنساوى يحصل على أكثر منه فى نفس مهنته ، فقلت له : يا أخى خللى فى عينك نظر .. بقى انت فى بلد الفرنساوى وتعمل بمهنته وتريد أن تتساوى به ؟.. وسألته « انت خريج إيه » قال : أنه خريج كلية الزراعة .. قلت له : افرض ان كلية الزراعة بالاتفاق مع الدولة أعطتكم قطعة أرض .. خمسين أو عشرين فدان وقالت لكم ازرعوها وابنوها وخدوها .. أليس هذا أفضل من جلوسكم على مكاتب أو مجيئكم إلى هنا فى باريس تشتغلوا « جرسونات » ؟ فقال لى الشاب المصرى : ياريت .. ولكن اللوائح والقوانين الحكومية من القرن الماضى

والبير وقراطية والروتين من أيام الفراعنة ، تعقدنا وتنفرنا مما يجعلنا نهرب ونختصر الطريق بالعمل « في بلاد برة » - فقلت له : لذلك يجب أن يكون لدينا عقل عام يدير الدولة ويقول ياناس نحن لدينا صحراء تعالوا نعملها لكي يتنفس الوادى ولا يخبثق ، وتقوم حملة في وسائل الإعلام لتشجيع الناس على الاتجاه إلى الصحراء .

وتستدرك زينب لتقطع استرسال والدها : يا بابا لمن تقول هذا الكلام ، هل حافظنا على أرض الوادى لنستصلح الصحراء .. إن المليون فدان التي استصلحتها الثورة ضاعت مع تجريف الأرض وبناء المساكن ؟

فيوافق الحكيم ابنته ويؤكد كلامها بوقائع حدثت فيقول : ساعات يأتي لى ناس من الفلاحين يقولون لى : غداً لن نجد الفلاح .. لأنه إما هجر أرضه وسافر للبلاد العربية يعمل له قرشين ويشترى سيارة يعمل عليها بالليل والنهار ، أو يعود فيبيع طين أرضه الخصب لمصانع الطوب الأحمر ، ويبنى بيوتا يؤجرها للاستفادة من أزمة الإسكان ، وحتى الذين لم يهجروا الأرض تخلى عنهم أبناؤهم وتركوا الريف إلى البندر بحثاً عن وظيفة ومكتب .

وتجد زينب أن تحليل والدها لمجرى الأحوال يدل على ألا فائدة فتحاول التسلل إلى منطقة يأس بداخله فتقول له : إذن لم يعد هناك أمل ؟ فيقول الحكيم مصمماً : الأمل موجود لكن المهم أن نبدأ العمل .. وأنا أجد بعض الإنجازات التي يفتتحها الرئيس مبارك أو يقوم بزيارتها تشعرني بالفرح وتدل على أن لدينا إمكانيات كثيرة وكبيرة ولكننا لا نستغلها وإذا استثمرناها لا نحسن استغلالها .. وهذا ما يحزننى ..

تسأله زينب :

وكأنها تريد أن تنهى الحوار الذى بدأ ولا تبدو له فى الأفق نهاية ولا زالا جالسين أمام مائدة الطعام : والحل إيه يا بابا ؟

فيقول الحكيم : الحل يبدأ بمواجهة جريئة من الدولة لكل مشاكلها دون خوف من صراخ الزاعقين .. وأولى المشاكل التي تحتاج إلى مواجهة هي مشكلة نظام التعليم .. لا بد من إحداث ثورة في التعليم .

وتنبهت زينب إلى أن حوارها مع والدها قد امتد بما أجهدتها وهي الشابة ، بينما والدها الشيخ لا يكل ولا يمل ، فما أيسر أن يلتقط الحكيم أى ملاحظة أو كلمة عابرة يجعلها مفتاحاً لنقاش طويل يمتد بالساعات على مائدة الطعام ، وكان يحدث هذا حينما تجتمع المائدة مع بنات زوجته وأزواجهن فيمتد الحديث بالثلاث والأربع ساعات إلى درجة قد ينسى معها الجالسون أنفسهم وينسون من أى بداية كان النقاش ، ثم بمهارة يجدون الحكيم يللم أطراف الحديث ليصل في نهايته إلى النتيجة التي يربطها ببدايته ، والجميع مستمعون بتحليله للموضوعات التي يتناولها سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو دينية أو فنية .. الخ ، لقدرتة على جذب مستمعه إليه مدعماً كلامه بالحكاية والطرفة والقصة والذكريات ، وغالباً ما كان الحكيم يجد في زينب ضالته في الفترة الأخيرة من حياته فيمارس معها رياضته الفكرية في الحوار والنقاش .. الذي لا يعى منه أحفاده شيئاً فينسحبون من على المائدة بعد أن يكونوا قد تناولوا طعامهم ، دون أن تنتبه أهمهم لقيامهم ، إلا بعد وقت طويل ، فما لهم وهذه المناقشات التي لا ناقة لهم فيها ولا جمل رغم أنها في كثير من الأحيان تتناول مستقبل جيلهم .

وكما أتاح وجود زينب مع الحكيم الفرصة أمامه ليمارس دور الأب الذي غاب عنه كثيراً ، فإن وجود أحفاده قد جعله يمارس دور الجد ورب الأسرة ، كما كشف له كمفكر عن الفروق بين تفكير واهتمامات ثلاثة أجيال تعيش معه في بيت واحد ، فضلاً عن كسر روتين الحياة الهادئة المملة التي كان يعيشها وحيداً مع مديرة بيته « منصوره » التي تقدمت بها السن

هى الأخرى ، وقد صارت الأيام أمام الحكيم مثل بعضها ، إما أن يقرأ كتاباً أو يشاهد تليفزيوناً يزعجه ما فيه أكثر مما يعجبه ، أو يجلس مع نفسه يستعيد ذكريات زوجة رحلت ولن تعود ، وابن غاب ولن يكون له ظهور .. حياة رتيبة ، خاصة وأن الحكيم ليست له هواية تعينه على ملء الفراغ الذى يعيش فيه ، حتى جاءت زينب وأولادها « مريم .. إسماعيل .. محمد » والذين حولوا حياة الهدوء التى يعيشها إلى ضجيج مما حول بيته الصومعة إلى بيت آخر لم يعد يعرفه ، حتى شعر الحكيم نتيجة للتغيير الذى أحدثوه فى بيته وحياته كأن هؤلاء الأحفاد أشبه بغرائب الطبيعة أو غزو قادم عليه من الفضاء ، عليه أن يتعامل معهم بالشكل المناسب ، ودار بينهم وبينه صراع ، إما أن يروضهم لطبيعته أو يروضه هم لطبيعتهم ..

فهل يستطيع الحكيم أن يدخلهم فى كهفه أو يستطيعون هم أن يجعلوه يعيش معهم عصرهم ؟..

الفصل الثالث

المشاعب

(١١٧) من سرفلس الحرس
حفيدہ استايل

- أربعة من عشرين لموضوع إنشاء كتبه الحكيم !
- رسالة إلى وزير التعليم .
- مطلوب تليفزيون تديره الوزارة .
- الجد يلعب الكاراتيه مع حفيده .
- أخشى ما أخشاه إدخال الدين كمادة أساسية .

(*) إهداء من الحكيم إلى حفيده كتبه له على صفحة من أجندته دون أن يضيف إليه شيئاً .

إنقلبت حياة توفيق الحكيم رأساً على عقب بعد أن استقر أحفاده في منزله ومعهم أهمهم ، فقد تغير النظام إلى شيء آخر تماماً غير ما تعود عليه الحكيم في حياته الطبيعية ، إنه يجد التليفزيون في إحدى الحجرات مفتوحاً على آخره ، وفي حجرة أخرى ، « الكاسيت » تنبعث منه موسيقى مجنونه ، وفي صالة البيت كرة ، تضرب في الأبواب ، وكتب وكراسات ملقاة يمينا وشمالاً ، وتليفون مشغول بالساعات .. مريم تتحدث إلى صويحباتها .. وهو يريد أن يتكلم في التليفون فينتظر بحجرته حتى تنتهي حفيده من مكالماتها ثم يخرج ليجد حفيده إسماعيل قد استلم التليفون من أخته ليتحدث هو الآخر إلى أصحابه ، أما المذاكرة فهي على الأرض بدلاً من المكتب ، والطعام بلا مواعيد ، في أى وقت « أكل » بين الوجبات الثلاثة ، وأثناء مشاهدة التليفزيون ، وباليات الأحفاد يأكلون بهدوء بل بطريقة تستفز الحكيم فتجعله يقول لهم : مالكم تأكلون في بوهيمية شكلكم يضايقني .. الأكل له نظام) ولكن من يسمع له أو يستجيب ، مما يسبب له متاعب نفسية ، فشعرت به ابنته « زينب » وأحست بخرجه من أن يقول لها « خذى أولادك واجلوا عن هذا البيت الذى غيرتم معالمة .. خلاص لا أريدكم) . فهذا آخر ما سيقوله الحكيم خلاصاً من هذه الفوضى التى شكاً منها إلى ابنته فعبراً عن قلة حيلته أمام ما يفعله أحفاده فقال لها « أنا حاسس أنى غير قادر أن أعيش في هذا الجو المملخبط ، ولكنها حين تسأله « تقدر يا بابا .. تستغنى عنا » ؟ فيقول لها مستسلماً : أنا ؟. لا طبعاً لا أستطيع أن أستغنى عنكم » .

وبدأ الحكيم مع الوقت يتعلم قلة النظام من أحفاده بدلاً من أن يعلمهم هو النظام .. جيلهم هو غلب جيله .. كل جيل يظن نفسه هو البداية وأنه

على صواب وأن ما سبقه كان على خطأ .. ولذلك فإن الجيل الذى يأتى إن لم يبلغ ما سبقه فإنه لا يأخذ به ولا يحاول أن يستفيد منه .. وهكذا لا تتواصل الأجيال .. كل جيل مقطوع الصلة بمن سبقه .. ولذلك يقول جيل كهذا الجيل إنه بلا أساتذة .. بلا آباء .. تغير الزمن وهذا صحيح .. وتغيرت ظروف كل جيل عن الآخر .. وهذه سنة الحياة .. ولكن هذا الجيل جمع من المتناقضات والسلبيات أكثر مما جمع جيل آخر .. فهو جيل متمرد ، أكثر جرأة .. أكثر رفضاً .. أكثر اهتماماً بما قد لا ينفع وإن كان يضر .. فأين هذا الجيل من جيل الحكيم .. جيل عقله فى رأسه ، وجيل عقله فى قدميه .. جيل كانت نظرة الأب فيه إلى الابن كفيئة بسحقه ، وجيل أصبح فيه عادياً أن يعلو صوت الابن على أبيه .. يشعل له سيجارته ويدخن معه .. ، فرق بين جيلين كالفرق بين سماء وأرض .. أو شرق وغرب .. شعر الحكيم بذلك بقوة إلى حد الصدمة بعد أن عاش أحفاده معه .. وبدلاً من أن ينجح هو فى أن يعودهم على عاداته وتقاليده ، ويقودهم بفكره وخبرته ، وجددهم يقودونه ويتركون تأثيرهم عليه ، فلم يجد هو مفراً من أن يتعود على طباعهم وعاداتهم .. فليس لقادم من كهف الزمن الماضى أن يفرض زمنه على الزمن الحاضر ، تلك هى الحكمة التى حاول الحكيم أن يحفرها على جبين كل عصر ويعلمها لنا فى مسرحيته « أهل الكهف » وأن له أن يطبقها فى تعامله مع أحفاده .. فإن لم يكن بقدرته أن يعود كأهل كهفه بعيداً عن الجيل الجديد ، فلا مفر له من أن يتعاش مع بنفس روحه وبجاريه حتى وإن لم يكن موافقاً على ما يجرى أو يحدث فيه .

لقد حدث نوع من التطبيع بين الحكيم وأحفاده ، أو الكائنات الغريبة الفضائية كما كان يسميهم بسبب سلوكهم وتصرفاتهم .. فعندما يجدهم يأكلون فى غير وقت الطعام يسألهم عما يأكلون ؟ ويأكل معهم وهو الذى

كان لا يتناول طعاماً إلا في مواعيد وتوقيتات محددة .. ثم وهو الذى لم يتعود على تناول الأكلات « الحريفة » ، تعود عليها إلى درجة أنه إذا جلس على الطعام وافقدها يقول لابنته « عندك إيه حاجة « حراقة » أكلها؟!

لقد أصبح الحكيم مثل أحفاده إلى درجة لم تكن تتخيلها إبنته زينب في يوم من الأيام .. لقد فوجئت به يمشى في حجرته « حافى القدمين » .. فوقفت تنظر إليه في دهشة وكأن قدميها قد ثبتت بمسامير في الأرض للمفاجأة التى استولت عليها .. ولكنها حاولت أن تجد مبرراً للمفكر الكبير .. ظنت أنه ربما كان ناسياً نتيجة سرحته من سرحاته التى ينسى فيها نفسه وما حوله ومن حوله ، أو قد يكون نسيانه بفعل الشيخوخة فلها أحكامها التى تبيح العذر لصاحبها .. ونبهته قائلة « بابا .. انت ماشى حافى؟! فقال لها بلا أدنى حرج أو تردد « ما خلاص بقى » ..! . يعنى فات وقت التعجب لقد صار مثل أحفاده أو قد صبروه مثلهم .

ولكن كله يهون أمام ما يلاحظه الحكيم في مقررات أحفاده الدراسية .. مريم بالمرحلة الإعدادية .. « وإسماعيل » بالمرحلة الابتدائية .. يفتح كتبهم أثناء وجودهم بالمدرسة أو أثناء جلوسهم في البيت للمذاكرة .. فمنهج اللغة العربية ليس مما يجيده التلاميذ في لغتهم ناهيك عن طريقة تدريسها .. وهذه الرياضيات الحديثة .. المعقدة .. يحمده الحكيم ربه أنها لم تكن موجودة على أيامه وإلا ما كان قد نجح أبداً .. ورغم أن أمريكا قد عدلت عن تدريسها إلا أنها لا تزال تدرس عندنا .. يتساءل الحكيم : لماذا الإصرار على التعقيد وتنفيذ أبنائنا من التعليم ؟ ولكن كله كوم والتربية الدينية كوم آخر لدرجة أن أخوف ما يخافه الحكيم هو إدخال « الدين » في المدارس (كمادة أساسية بدلاً مما هى عليه الآن كمادة غير داخلة في المجموع) . يسأله التلميذ : لماذا ؟ ويحجبه إننى أسمع من أولياء الأمور

أنهم يجدون أولادهم في حالة خوف شديد ومشقة شديدة من إدخال الدين في المدارس كمادة أساسية لأن المسئولين عن التعليم لا يختارون في المقرر الديني إلا أصعب الآيات لغة ومضموناً وهذا مما ينفر من الدين أكثر مما يجب فيه ، بينما في جيلنا نحن كنا نقبل على حصة الدين لأن الدين كان يصور لنا بصورة مبدعة .. فكانت الآيات المقررة قصيرة وبسيطة تتدرج بعد ذلك مع مداركنا وأفهامنا كلما صعدنا درجة من درجات الدراسة .. كما كان الأستاذ أو الشيخ الذي يدرس لنا يروى قصص الأنبياء بطريقة تستهويننا .. لهذا لم نكن نشعر أبداً أن «الدين» شيء صعب مثلما يحدث اليوم مع أن الدين بسيط في تعاليمه ، ويجب أن يكون كذلك بسيطاً في طريقة تناوله للطلبة ، وهذه هي البداية لتربية سلوك يتمشى مع طبيعة الإسلام وبساطته .. وهذا يكون الدين أداة للرقى ، وبذلك تتخرج لدينا أجيال تفهم المعنى الحقيقي للإسلام .. ولكن ما يحدث عكس ذلك تماماً .. فليس في برنامج المدرسة ما يدل على مباشرة هذا السلوك .

فسور القرآن بوجه خاص ومنهج الدين المقرر ليس في مستوى تلميذ في مرحلة ابتدائية .. ولذلك كان الحكيم يقول لحفيده إسماعيل متعجباً : هذه السور مقررة عليكم؟ .. أنتم تتعبون جداً . بل حتى الموجهين للفكر الديني من شيوخ المساجد .. بعضهم يميل إلى التعصب .

يستأذن الحفيد ، « جده » في النزول يوم الجمعة لأداء الصلاة .. فيبدو السرور على الحكيم ويسأله : هل تصلى يا إسماعيل ؟ ، ويشجعه ، ويوصيه أن يحذر السيارات وينظر يميناً وشمالاً قبل أن يعبر الشارع تجنباً للحوادث التي أصابت « زيدا وعمراً » ، .. ويعود إسماعيل ليسأله جده عما قاله خطيب المسجد في خطبته للمصلين ، فيخبره بأنه تناول ادعاءات المسيحيين ببنوة المسيح لله ، فيتعجب الحكيم ويتساءل : هل هذه قضايا تطرح على الناس في المسجد .. إنهم يؤججون نار التعصب والفتنة .. إن

رجال الدين أولاً وأخيراً هم المسئولون في الأغلب في أن الشباب الغيور على دينه لجأ إلى العنف لأنه وجدهم لا حول لهم ولا قوة وقد أهملوا مسئولياتهم في توجيه الشباب والتفتوا إلى الدين من حيث هو شعائر ونصوص وحلال وحرام .. وكلام ليس له دخل في المهمة الحقيقية التي يجب على رجال الدين القيام بها لأنهم الورثة الحقيقيون للنبي صلى الله عليه وسلم في أن يحتفظوا بالأمة الإسلامية كخير أمة أخرجت للناس بعد أن ارتفع بها الرسول من محيط الجاهلية .. ولكنهم نظروا إلى مظهر الدين وليس إلى جوهره وتركوا الشباب حائراً لا يجد من يقوده فقاد نفسه ، وكانت النتيجة التي يعرفها الجميع .

وبحاول الحكيم أن يصلح في عقل حفيده ما أفسده فيه خطيب المسجد من بذور بذور التعصب مفهما إياه فكرة الدين الصحيحة وأنه دين يسر وسماحة .. وليس دين عسر وتعصب ، ولكن الحفيد لا يستطيع أن يفهم أو يعي كثيراً ما يقوله له « جده » الذي رغم ذلك يحاول أن ينزع من رأسه أى أفكار قد تترسب في عقله الباطن تكون لها مردوداتها كلما نما وكبر ، ولذلك كان الحكيم يسأل حفيده كلما عاد من صلاة الجمعة عن موضوع خطبة إمام المسجد ليطرده منها بالشرح والتحليل ما يكون قد علق بذهنه من مفاهيم خاطئة لأمر الدين ، لأن إمام المسجد يكون أكثر تأثيراً في الفتية والشباب من المدرسة التي تنفرهم بمناهجها ومقرراتها الدينية من فهم الدين فهما صحيحا ، رغم أن المدرسة والمسجد يلعبان دوراً هاماً بجانب وسائل الإعلام في التربية والنهوض والرقى ، وإذا كان الحكيم يستطيع إيجاد التوازن لحفيده مع ما يسمعه من خطيب المسجد ، فما الذى يستطيع أن يفعله مع منهج المدرسة .. لا شيء يملكه كمفكر سوى أن يطالب بإحداث « ثورة في التعليم » ونظامه الذى أدى إلى انتشار الدروس الخصوصية ووصل إلى درجة الغش الجماعى في الامتحانات العامة .. فقد

كان الحكيم يغضب عندما يري « معلمة » تخرج وأخرى « تدخل » لإعطاء حفيدته « مريم » دروساً خصوصية مما جعله يقول لأمها زينب « لا داعي لأن تذهب مريم إلى المدرسة وهاتوا لها مدرسين في البيت وتذهب آخر السنة للامتحان » .. ولكن الحكيم يفاجأ بأخبار المهزلة التي وقعت في لجان الامتحانات في بعض المدارس الإعدادية بمدينة الحسينية بمحافظة الشرقية وبعض البلاد التابعة لها عندما اقتحم بعض أولياء أمور التلاميذ ، لجان الامتحانات وخطفوا أوراق الأسئلة وخرجوا بها ، ثم عادوا بعد دقائق إلى اللجان مرة أخرى وقد كتبوا الإجابات على أوراق الأسئلة ، بل إن « ميكروفونا » قد تم وضعه فوق أحد المساجد القريبة من إحدى اللجان وكانت تزداع منه الإجابات علانية على أسئلة الطلبة في الامتحانات .. مما جعل الحكيم يقول ساخراً معلقاً بمرارة « دروس خصوصية وأيضاً غش؟! المفروض أن يجعلوها غشاً ولا داعي أن ندفع فلوساً للدروس الخصوصية » .. على أنه رغم الدروس الخصوصية التي كان يتكبد الحكيم مصاريفها لحفيدته « مريم » بالمرحلة الإعدادية إلا أنها لا تستطيع حتى أن تجيد كتابة موضوع إنشاء ، ولذلك جاءته يوماً بدلا لها عليه قائلة « يا جدو .. في المدرسة طالبين موضوع إنشا عن « أضرار المخدرات » .. كيف أبتديه ؟ » .. فراح يعطيها أفكاراً للموضوع الذي طلبته ولكنها طمعت فيها هو أكثر متكاسلة عن كتابة موضوع الإنشاء وطلبت من جدها أن يريحها ويكتبه لها ، وظنت أنها بذلك ستحصل على أكبر درجة في حياتها الدراسية عن موضوع إنشاء ، ولكن كانت تنتظرها مفاجأة لم تكن أبداً تخطر على بالها ولا بال أمها ، فقد جاءتها من مدرستها وهي تقول لها « هل رأيت أبيك الذي أنت فخورة به .. لقد حصلت على أربعة من عشرين على موضوع الانشا الذي كتبه لي .. يعني « يا مامي » لو كنت أنا كتبته على الأقل كنت أخذت ١٢ أو ١٣ درجة وليس

أربعة « ! وتضحك مريم ، وتضحك معها أمها التي تقول لابنتها : وهل عرفت « المعلمة » أن جدك هو الذى كتب الموضوع ؟ ، قالت مريم « خجلت أن أقول لها ، فتقول لها « زنب » وهى لا تزال تضحك على المهزلة « نفسى إنك تقولى لها » .

وكان العذر الذى هو أقبح من الذنب ، وساقته معلمة « مريم » عندما أخبرتها أن موضوع الإنشاء الذى كتبه واستحقت عليه الأربع درجات من عشرين ، كان بقلم جدها المفكر الكبير ، بررت ذلك بأن الموضوع لم يستكمل كل جوانبه وعناصره !

لقد كان توفيق الحكيم فى طفولته بالمرحلة الابتدائية يحصل على أعلى الدرجات فى موضوعات الإنشاء ، فما باله وقد صار شيخ الكتاب يحصل على أضعف الدرجات؟! ، وهو لم يعرف حتى رحيله بالأربع درجات التى حصل عليها ، ولا شك أنه لو علم بذلك لتأكدت له وجهة نظره عن فشل نظام التعليم الذى لا يستحق فيه مفكر كتوفيق الحكيم سوى الرسوب فى موضوع إنشاء يكتبه لحفيدته .

* * *

وكانت ملاحظة توفيق الحكيم لتدهور التعليم ، قد جعلته يطالب بثورة فى التعليم ، وخاطب أحد وزراء التعليم* يقترح عليه قائلاً : « وحيداً لو أنفق حتى المليار فى إنشاء تليفزيون خاص بالتعليم ، تديره وزارة التربية والتعليم وتضع برامجه طبقاً لمراحل العمر ، ومقتضيات المراحل الدراسية وتجعل من هذه البرامج نموذجاً للمنفعة والمتعة معاً .. وتستعير الأفلام الملائمة لهذا الهدف العظيم من مختلف البلاد المتقدمة .. إن

(*) د . عبد السلام عبد الغفار الذى دخل فى حوار مع توفيق الحكيم إداره المؤلف حول معنى الثورة والتطوير ، وملحق فى الباب الخاص بالوثائق ، صورة بخط الحكيم للاقتراح الذى يرى فى تحقيقه إحداثاً للثورة التى دعا إليها .

وزارة التعليم بهذا التليفزيون وإدارته الخاصة الملحقة بوزارة التربية والتعليم .. سيكون هو التطوير بل هو « الثورة التعليمية » النافعة المحببة ، التي ستحدث الأثر العظيم في المجتمع كله والمستقبل كله ، وتكون مثلاً وقدوة يتبعها العالم كله في دهشة وإعجاب) .

وإذا كان الحكيم يدعو لثورة في التعليم ، من أجل مستقبل جيل أحفاده والأجيال التالية ، ويقارن بين التعليم الجيد في عصره ، وبين التعليم المتدهور في عصر أحفاده ، إلا أنه يغبط جيل الأحفاد على ما أتبع لهم من وسائل الثقافة والترفيه :

لعب ، تليفزيون ، فيديو ، نوادي ، حرية في القراءة لأي لون من ألوان الثقافة والمعرفة والتسلية دون حسيب ولا رقيب ، وهو ما لم يكن متوفرًا لجيله ، فهو لم يكن حرًا في اختيار ما يقرؤه من روايات وقصص ، لأن والده كان يفرض عليه نوعية معينة من القراءة التي لا يجبها ، فكان يقرؤها إرضاء لأبيه ، وكان يختفى بما يريد قراءته بعيدًا عن عيون أهله كما لو كان يرتكب ذنبًا ، فكان يتسلل حاملًا الكتب ليقرأها تحت السرير على ضوء شمعة ، نسيها ذات يوم ، فكادت تشعل حريقًا في البيت لولا لطف الله .

أما اليوم في هذا الجيل فباستطاعة « مريم » حفيدة الحكيم أن تقرأ روايات « عبير » العاطفية دون أدنى خوف أو حرج ، وباستطاعة حفيده « إسماعيل » أن يقرأ الروايات البوليسية التي يجبها ، بدون أن يجبره أحد على قراءة شئ غيرها ، بل كان باستطاعة أحفاد الحكيم أن يعرضوا عن قراءة ما يهددهم به جدهم من كتب لينمى فيهم حب الاطلاع والمعرفة والثقافة ، مما يناسب أعمارهم ، فكانوا يأخذونها فرحين بشكلها وصورها

الملونة شاكرين جدهم ، دون أن يقرءوها ، فالحفيد يهوى لعب الكرة ومشاهدة أفلام الكاراتيه في الفيديو ، وقراءة الألفاظ والقصاص البوليسية . أما الحفيدة فتتهوى مشاهدة المسلسلات والأفلام ، وسماع الأغاني ، وقراءة الروايات العاطفية . لا شئ مما يحضره لهم جدهم يستهويهم ولا شئ من حوارهم مع أمهم على مائدة الطعام يعينهم ، فيظل الحوار بين طرفين :

الأب وابنته ، أما إذا شارك الحفيدان في الحوار ، فلكي يحدثا جدهما عما شاهداه في أفلام الفيديو ، أو يحكيها له عن أصحابها وأساتذتهما في المدرسة ، فيقلد حفيده إسماعيل ، مدرسيه في كلامهم وحرركاتهم بطريقة كاريكاتورية تثير الضحك ، ولكن الحكيم يظل صامتا يعود بذاكرته حينما كان في مثل سن حفيده ، وكأنه يذكره باثنين من زملاء الدراسة الأولى ، وكانا يفعلان شيئاً مع أساتذتهم يشبه بعض ما يفعله حفيده اليوم ، وقد مرت الأيام وأوقعها سوء حظها في يده عندما كان وكيلاً للنيابة بمدينة طنطا ، حيث قدما إليه في « محضر تلبس » في عملية نصب على الطريقة الأمريكية حينما طلبا من « دخاخي » علبتي سجائر ، « وفكة » عشرة جنيهات ، فأعطاها لهما البائع دون أن يأخذ العشرة جنيهات ، وأسرعاً إلى سيارتها الفخمة ، لولا أن توقف محركها ، فتم القبض عليها ، ليقعا في يد زميلها في الدراسة ، توفيق الحكيم الذي صار وكيلاً للنيابة ، وتذكر لحظتها ماذا كان يفعل أحدهم ، بأحد الأساتذة الذين أطلقوا عليه اسم الشيخ « بنجر » الذي كان يقذف التلاميذ المشاغبين « بيلغته » ، حتى فكر هذا التلميذ الذي كان يجلس بجوار النافذة ، في إضحاك زملائه على أستاذهم ، حينما قذفه الأستاذ بهذه « البلغة » فتفادها بسرعة لتسقط خارج النافذة ، ليظل الأستاذ حافياً يلعن ويسب ! وأفاق توفيق الحكيم من ذكرياته على ضحكات حفيده وهو يقلد

مدرسيه ، وراح الجد يتجاوب معه وإن لم يوافق على ما يفعله ، فهو يحبه لأنه يحمل اسم وحيد الراحل « إسماعيل » ، صاحب تسمية الحفيد بهذا الاسم على غير رغبة من أمه التي كانت لا تستسيغ أن يوجد اثنان في أسرة واحدة باسم واحد ، ولكن إسماعيل خال ابنها ، كان كمن يتنبأ لنفسه بأنه لن يعيش طويلاً ، فقد أبدى رغبته لأخته زينب أن تسمى مولودها القادم إن كان ولدًا ، على اسمه ، فوافقت على غير إقتناع وساعتها يحلها ربنا ، حتى كانت ساعة مجئ وليدها ، فتم إبلاغ إسماعيل تليفونياً وكان خارج البيت ، فقال : مبروك إسماعيل .. أسموه إسماعيل .

مما أخرج زينب ، وهاهو إسماعيل الحفيد يعرض الحكيم عن ابنه ولو بمجرد حمله لاسمه ، ولذلك كان الحكيم يهتم بحفيده ويعمل على إعداده ليكون رجلاً مؤهلاً لخوض غمار الحياة مسلحاً فيها بالعلم والثقافة والهوايات أيضاً ، لذلك حاول الحكيم أن يقرب المسافة بينه وبين حفيده ، عله يعرض معه في طفولته ما لم يتح له أن يفعله مع ابنه عندما كان في مثل سنه .

فكان يهتم بدراسته ، ونتائج إمتحاناته ، فيقول له :

تعال يا إسماعيل فرحني ، فيسعدني الحفيد بتفوقه ، معتمداً على نفسه ، دون حاجته كأخته إلى دروس خصوصية وهذا مما يجعل الحكيم أكثر بهجة بحفيده الذي يحصل على درجات عالية بمجهوده .. حتى في العام الدراسي الأخير (الذي توفي فيه الحكيم) حينما انشغلت زينب بوالدها المريض مما أخذ منها الوقت الذي كانت تمنحه لابنها لمتابعة دراسته ، فشعرت تجاهه بالتقصير ، لذلك كانت تسأله : هل أنت محتاجني يا إسماعيل ، فيدرك هو حاجة والدها إليها فيقول لها بذلك الجليل دون

أن يصرح باستغناؤه عن أمه ، فهو لا يستغنى عنها أبداً : « أنا غير مهم .. ابق مع جدو فهو محتاجك أكثر مني » .. ولذلك كان الحكيم كلما رأى حفيده يقول له مشجعاً « أقعد ذاكر .. أنا مبسوط منك لأنك تذاكر وتعتمد على نفسك بعكس أختك التي تعتمد على الدروس الخصوصية .. دعك منها إنها خائبة .. أما أنت يا إسماعيل براوو عليك أنت مجتهد وشاطر .. وحذار أن تأخذ دروساً خصوصية فهي ستضيع وقتك » ورغم أن الحكيم معجب جداً بحفيده لتقدمه الدراسي إلا أنه كان يتأثر نفسياً جداً عندما يراه عديم النظام يجلس على الأرض ويذاكر .. فكانت أمه تدافع عنه بعدم وجود مكتب ليذاكر عليه إسماعيل ، فيقول الحكيم لها : لكن فيه « تراييزات » وهي مثل المكاتب ، فتقول له زينب : التراييزات ماتنفعش يا بابا .. لازم يكون فيه مكاتب له ولأخته .. وتحاول الأم أن تبرر للحكيم عدم نظام ابنها بأنه ليس نابغاً منه ولكن المشكلة في عدم وجود مكتب .. غير أن زينب اكتشفت أنها قد جانبت الصواب .. فبعد ما اشترت مكتباً لإسماعيل لم يتغير الوضع .. إنه يلقي بكتبه على طاولة ذراعه على السرير بمجرد عودته من المدرسة ، ويفضل كما تعود أن يجلس على الأرض ويذاكر ، ومما يتعب الحكيم نفسياً أيضاً أن يرى حفيده يستعمل « التكنولوجيا » في « الحساب » ولا يستخدم عقله ، فحين يبعثه ليشترى له « أدوية العلاج » من الصيدلية يطير الحفيد فرحاً لأنه سيتقاضى « عمولة » عندما يقضى لجده بعض حاجياته ، وعندما حاولت زينب أن تنبه والدها ألا يجعل مسألة « العمولة » عادة دائمة ، لأن ذلك لن يجعل حفيده يقضى له شيئاً ، حباً في جده ولكن حباً في العمولة ، فيكون رد الحكيم المعبر عن فهمه لطبيعة الجيل الجديد :

هذا جيل لا يتحرك إلا بالفلوس .. لن يسير أو يفعل شيئاً إلا بالفلوس .

يقولها الحكيم جاداً مع شعوره بالهزيمة أمام هذا الجيل ، ولكن ليس له حيلة إلا أن يجاريه ويتفاهم معه بلغته وأسلوبه . وكان الحفيد يترصد جده حينما يراه صامتاً أطول فترة ممكنة ، فلا يتكلم ولا يسمع من يكلمه ، مما يكون إرهافاً بالاستعداد لكتابة شئ ما يديره في رأسه ، فينتظر الحفيد حتى يدخل جده إلى عالم الكتابة وإنهماكه فيها ، وساعتها يطالبه بما يريد من نقود ، فهذا هو الوقت المناسب الذي لا يستطيع فيه جده إلا أن يجيبه إلى ما يريد تحلّصاً من إزعاجه حتى لا يقطع حبل أفكاره .

ورغم صراخ الأم لابنها أن يبتعد عن حجرة جده ، إلا أنه لا يضيع فرصة جاءته من أجل مزيد من النقود . وكان الحفيد كلما أراد النزول إلى النادي أو زيارة أصحابه ، يقول لجده : ألا تريد أن أشتري لك شيئاً يا جدو ؟

فيدرك الحكيم مقصد حفيده الماكر فيقول له :

هل تريد أن تأخذ كل يوم عمولة ؟! وفي إحدى المرات التي عاد فيها الحفيد بعد شرائه أدوية لجده ، طلب منه الحكيم أن يحسب له ما هو المنصرف وما هو المتبقى لكي يتركه له ، فيسرع الحفيد إلى « الكلكليطور » أو الآلة الحاسبة ، فيتضايق الجد من هذا السلوك التكنولوجي الذي يمارسه الحفيد في غير موضعه حيث لا يجب استخدام هذه الآلة إلا في المسائل العويصة ، ولكن استخدامها في المسائل البسيطة له خطره على العقول فتتعطل ملكة التفكير وتضمحل ، ويصير الإنسان عبداً للآلة التي صنعها .. لذلك حين كان الحكيم يتوقف مفكراً في مستقبل الفكر الإنساني أمام التقدم التكنولوجي ، لم يكن يستبشر خيراً ، فإن القرن القادم سيكون هو قرن الحضارة الآلية بدلاً من الحضارة الإنسانية . ينبه الحكيم كمفكر إلى خطر المغالاة في استخدام الآلة أكثر من

العقل ، وكانت ابنته زينب ، تلمس انزعاجه ، فتحاول التقليل من استخدام ابنها للآلة .

ولم يكن الحكيم بذلك عدواً للتكنولوجيا والأخذ بأساليب المدنية الحديثة ، ولكنه كان مرحباً باستخدامها شرط ألا يعطل القدرات والطاقات والملكات البشرية ، وقد ظل الحكيم طوال حياته لا يستطيع استخدام آلة من الآلات ، حتى جهاز التسجيل لم يكن يستطيع أن يتعامل معه في تلك المرات القليلة التي استخدمه فيها ، إلا بواسطة ابنته ، وإذا قامت بتشغيله له فإنه لم يكن يستطيع أن يوقفه إذا أراد ، ولكنه ظل يستخدم يده لتحريكها في الكتابة ، رياضته المفضلة ، بل عشقه المقيم به حتى آخر العمر ، كما كان يحرك قدميه بممارسة هواية المشي ، حين كان قادراً على ذلك ، ولم يكن يفضل ركوب السيارات لأنها في نظره تعجل بقدم الشيخوخة والمرض ، أما السير على الأقدام فيحول دونها ، ويعيد الشباب ، ولم يتخل الحكيم عن هذه الرياضة حتى بعد أن وهنت عظامه ، فكان يتجول في صالة البيت وبين حجراته ، بل إنه في كل ما يخصه كان يحاول أن يقوم به بنفسه قدر استطاعته ، حتى في فترة مرضه .

إنه يطهو الشاي لنفسه ، وينظف « بذلته » بمعرفته ، وأحياناً ما كان يقوم بغسيل قمصانه ، وتلميع حذائه ، كما كان حريصاً على ترتيب فراشه بعد استيقاظه لأنه لم يكن يطيق أن يرى حجرة نومه « منكوشة » . ولقد حاول الحكيم مع حفيديه أن يستخدموا مثله أدواته البشرية ، فيشجع مريم على أن تكون ست بيت ممتازة ، وبجاري إسماعيل حفيده في هواياته بل ويشاركه فيها أحياناً ، ولكن كله كوم ، والموسيقى كوم آخر ، إنه يصرخ في حفيده كلما رآه أو سمعه يعزف على البيانو الموجود في مدخل البيت ، فيناه ويذجره ، ويقول لأمه :

أرجوك ابعديه عن المزيكا .. ربنا يخليك .. كفاية واحد .

فهو يرى أنه لو ترك حفيده يسلك طريق الموسيقى الذى سلكه ابنه ، لتكررت نفس المأساة ، وما عدا الموسيقى فإن الحكيم يترك حفيده لممارسة أى هواية أخرى حتى لو لم يكن مرتاحاً لها أو راضياً عنها ، وذلك حتى لا يجرمه منها كما حرم هو نفسه فى صغره من هوايات كان يحبها لولا أهله الذين أبعده عنها أو أساءوا توجيهه إليها ، مثلما فعلوا عندما انتزعت منه أمه « العود » بحجة أن ذلك يشغله عن دراسته . وعندما أراد أبوه أن يعلمه العوم ، جذبته من يده إلى حيث يسبح هو فى الأعماق دفعة واحدة ، فخاف من البحر وأمواجه ، وأقسم ألا يضع قدمه فى ماء بحر أبداً منذ أن كان عمره عشر سنوات ، واستعاض الحكيم عن العوم فيه ، بالصيد منه عند ما كبر ، وحينما كان يزور قريته « أبو مسعود » فى ريف محافظة البحيرة ، لم يحدث أن وقعت سمكة فى سنارته ، فكان أقرانه يجاملونه بأن يضعوا له سمكة فيها ، ليدخلوا على نفسه البهجة والسرور ، ولكنه كان يعلم أنه لن يفلح فى هواية أحبها ، ولكنها نزعات ترتدى أزياء مختلفة بحسب الظروف والأحوال ، فقد كان يجب الرسم ويجتهد لكى يبرز فيه ، ولكنه لم يجد أحداً يشجعه على الاستمرار فيه ، غير أن أجمل شئ كان يجذب الحكيم فى طفولته هو « الأراجوز » ، حيث أن فرح الدنيا لم يكن يثير فى مشاعره ما كانت تثيره دقات طبلته المتواضعة ، وهو يقترب من الحى الذى كان يعيش فيه .

أما اليوم عندما يشاهد الحكيم ، هوايات حفيده ، يراها هوايات خالية من الفكر والفن والخيال ، إنها هوايات تنسم بطابع العصر المتسم بالعنف ، فقد نشر التليفزيون ثم الفيديو ، رياضات كالكرة التى لا تخلو من عنف ، والكاراتيه ، بما تبثه الشاشة الصغيرة من أفلام بوليسية تستهوى الأطفال والشباب ، فأضاعت أجهزة الإعلام وأخطرها التليفزيون ، الحياة فى « المعنى » ولم يعد الإنسان يستطيع أن يعيش إلا فى

« المادة » ، ولم يعد في مقدوره أن ينفخ الروح في شيء ، لذلك كان الحكيم يرى أنه لا بد من فنانٍ يحتفظ ببعض قوى الطفولة ، فينسخ من خياله صوراً توسع ولو قليلاً من أفق الحياة المادية الضيقة .

ولكن الحكيم الفنان لم يكن يستطيع أن يعيش مع خياله كثيراً ، فقد كان حفيده يضطره إلى أن يظل مشدوداً إلى الواقع ، فكيف وأين للخيال أن ينمو ، والكرة التي يلعب بها حفيده تهز أبواب حجرات البيت ، وهو يصبح مع كل قذيفة « جول .. جول » .

مما جعل الحكيم يكاد يخرج من حجراته ليصرخ فيه ، أن يكف عن هذا الإزعاج ، ويذاكر له كلمتين ينفعوه . ولكن الحكيم يتراجع ، فقد تذكر أن حفيده متفوق في دراسته ، ومن حقه أن يلعب ، وتذكر إلى جانب ذلك كيف أن من أكبر أخطاء حياته أنه لم يتعلق بلعبة أو هواية ، مما جعل حياته جافة ، فليلعب حفيده الكرة ما شاء له أن يلعب ، أليست هي تعبيراً عن أحد معالم العصر ؟ . يسأله التلميذ عن رؤيته لمجتمعنا في هذا العصر ؟ ، فيقول المجتمع تطور فصار فريقين :

مجتمع الكورة ، ومجتمع القهوة ، ناس يلعبون الكرة أو الطاولة ، ويقولون صائحين « جول » أو « شيش بيش » ، ويمر بهم بائع كتب يصيح « العقد الفريد .. لابن عبد ربه » ، الأيام « لطف حسين » ، العبقريات .. للعقاد » ، « الحمار .. للحكيم » ، فيطرده « الجرسون » قائلاً له : « امشى بره مفيش حمار هنا ! »

يسأل التلميذ : وما تعليل ذلك ؟ يقول الحكيم : أنه قليل من يفهم أنه في حاجة إلى عقل آخر غير عقله ، وهذا القليل إذا فهم أن المفكر قد نفعه فهو قلما يجهد كفيه في التصفيق له ، وقد قيل إن مكتشف « البنسلين » ، والذي نفع الناس كثيراً باكتشافه ، قد ذهب إلى وطنه ، فلما نزل من « القطار » وجد حشداً من الناس على المحطة ، فحسبهم جاءوا

لاستقباله ، وإذا الناس يصفقون وهتفون في جهة أخرى ، وإذا بمثلة
سينا مشهورة قد نزلت من القطار فتدافع الجمهور المحتشد نحوها ،
فعرف « العالم المفكر المكتشف » أن حشد المستقبلين لم يكن له .. بل كان
للممثلة المشهورة !.

وينشغل الحكيم بمستقبل حفيده وكل جيله وهو يرى ملامح المجتمع
ورموزه تتمثل في كورة ، وقهوة ، ومغنى ، وتمثيل ، ولذلك يرى أن
الشباب معذور إذا راح يحسب المسائل ويقارن بين ما سوف يحصل عليه
بعد تخرجه ، من الوظيفة حتى لو أخذ شهادات الدكتوراه ، وبين
ما يحصل عليه لاعب كرة في « جول » واحد ، أو مطربة في أغنية
واحدة ، أو راقصة في هزة بطن واحدة . ولكن من هو المسئول ؟
يطرح الحكيم تساؤلاته وملاحظاته على إبنته أثناء تناول الطعام ،
ويجب :

الحكومة مسئولة عن وجود هذه التناقضات في اتجاهات الشباب لأنها
تشجع المجتمع على أن يكون مجتمعاً مادياً ، وتبالغ في التقدير المادى لفئات
في المجتمع تصبح هي المثل العليا للشباب في تحقيق طموحاتهم المادية ،
والتقليل من شأن الطموحات الفكرية .. فتسأله ابنته : ولكن ألا يتحمل
المثقفون جزءاً من المسئولية ؟

فيوافقها الحكيم ويقول لها : للأسف لا يوجد عقل للمجتمع من
المثقفين ينبه إلى خطورة هذا الوضع أو يؤثر في الدولة لكي يصبح للفكر
قيمة .

ورغم عدم رضاء الحكيم عن لعب حفيده بالكرة إلا أنه من ناحية
أخرى لا ينهيه عنها لكي لا يجرمه من هواية يحبها ، كما حرم وهو في مثل
سنه من التعلق بلعبة ، مما يندم عليه اليوم ، فليعيش مع حفيده طفولته

بطريقته ، لذلك كان يفتح له الصحف والمجلات على الصفحات الرياضية ليقراها حفيده بعد عودته من المدرسة ، وغير مسموح لأحد بمطالعتها قبله ، حتى أمه زينب لا يسمح لها والدها بذلك ، وإذا كان ولا بد فعلها ألا تغادر الحجرة بتلك الصحف .

ولأن الحفيد إسماعيل يشجع فريق « الزمالك » ، فقد كان الحكيم يتخذ من ذلك مناسبات لمداعبته واستفزازه في بعض الأحيان حتى لا يلحظ أنه يسخر منه أو يتضحك عليه ، فيتخذ الحكيم جانب « الفريق الأهلي » ويتظاهر بتشجيعه ، وقد اتهم الحفيد ، كابتن الأهلي ، محمود الخطيب ، بأنه السبب في إقناع جده بتشجيع « الأهلي » ، بعد أن قام بزيارته في مكتبه !

وحين يهزم « الأهلي » ، « الزمالك » ، يتلقى الحفيد لوم وتقرير جده ، كلما رآه يمارس شقاوته ، أو يعلو صوته على أخته « مريم » عندما يطلب منها شيئاً فلا تجبه إليه ، بحجة أنها مشغولة في المذاكرة ، فيسكته جده بمعايرته بهزيمة فريقه ، ويقول له :

هو انت لك عين تتكلم والزمالك خيبان وانت خيبان ؟ .
أو يقول له حين يفوز « الأهلي » على « الزمالك » بالدورى : ابك على خيبتكم .. بقى لك سنة تقولى زمالك .. زمالك .. وفى النهاية الأهلي هو الذى أخذ الدورى . فيبرر الحفيد هزيمة فريقه بأن اللاعب الفلانى لم يشترك فى المباراة ، ولو كان موجوداً مع فريقه ما انهزم ، أو أن الحكم لم يكن منصفاً ، أو أنه سوء حظ لازم للعبة .

ولكن الحكيم يقول لحفيده : الخلاصة إن فريقكم لا يعرف كيف يلعب لأنه لم يعرف كيف يتدرب .. وعندما يجد الجد حفيده يرتدى ملابس الرياضة الحمراء يقول له :

مادام انت زملاوى .. فلماذا ترتدى ملابس الأهلئ ؟
أما إذا فاز الزمالك ، فإن الحفئد ففد فرصته لفغفظ الحفم ، مشففا
ففه اعتقادا منه أنه أهلاوى ، ففقول له :
هل رأفت فافدو .. الزمالك فاز وغلفكم .
ففصمت الحفم مئففاً فبسامته ، مئظاهراً باهزفمة وكأنه لا ففستففع
تبرفرها .

وأفهاناً كانت تئدث مثل هذه المناقشات الكروفة بعد مشاركة الحفم
لحففده فف مشاهدة ما تشات الكرة على شاشة التلفزفون خاصة تلك الفف
ففتنافس ففها الزمالك مع فرفف أفئبى ، وفرى كفف فففف الجمهور
وفصرئ وفقوم وفقعد ، وفرقص وفؤلف الأناشفد والأغانى ، عند إئراز
أى « فون » ، وكفف ففصئ اللاعب فلان ، أو اللاعب علان
« بالفون » الذى سده فف مرمى الفصم ، ءدفف الناس وتعلفقات
الصءف لأفام متوالفة ، وكان هذا اللاعب « بالفون » الذى أئرزه قد
ءل مشكلة من مشكلات مصر .

وفرى الحفم فف حففده وئفله ، نتاا هذه السفاسة ..

وكان كئفراً ما فنشغل بالفكر والتءلل والتأمل وهو فشاهد مع حففده
ما تشات الكرة الفف فظل سارءاً عنها أفلب الوقت ولا فببى أى انفعال
من تلك الانفعالات الصاءبة الفف فببفها الجمهور فف الملعب ، وتنتقل
عدواها الأهستفرفة إلى حففده الفالس بفواره ، ولا فففق الحفم من
تأملاته ، أو فئرف منها إلا على فهاة المباراة ، ففءاعب حففده طبءاً
لنتفبئتها ، وسعده أن فئفسر الفرفق الذى فشعبه الحففد ، ءئى فكون
هناك مءال لمشاكسته ومعافرته بهزفمة فرففه ، فف مءاوله منه لئهدئة انشغاله
بالكرة إلى هذا الءد .

فها هو الفريق الذى يتعصب له قد نالته الهزيمة ، فلا داع لأن يشجعه ويشغل نفسه به طوال العام ، ثم تخيَّب آماله فيه .
هذه المعانى وغيرها مما يريد الحكيم أن يصل بها إلى عقل حفيده ، ولكن تأتى النتيجة عكسية ، فالحفيد يزداد تعصباً لفريقه وتعاطفاً معه ، ومبرراً أخطائه .

وإذا ما انفض « مولد » الكرة ، نصب الحفيد ، مولد « الكاراتيه » ، وكانت أيامها موضة أقلام « بروس لى » سائدة ، والحفيد معجب بهذا النموذج للإنسان البطل الذى يدافع عن نفسه وينتصر على الأشرار بقوته التى يظهرها بممارسة « الكاراتيه » كوسيلة لإثبات بطولته ، ولذلك كان الحفيد يحاول أن يقلده فى حركاته وصرخاته التى تملأ البيت وتزعج الحكيم وتقلق راحته ، فما يكون من الحكيم إلا أن يعلن « بروسلى » هذا أو يشتمه لأنه السبب فى هذا الازعاج الذى يسببه له حفيده ، وفى إحدى المرات التى كان يزور فيها الحكيم ابنته فى الاسكندرية حينما كانت لا تزال تقيم هناك أراد الحكيم أن يمارس مع حفيده لعبة الكاراتيه ليهزمه فيها عله بعد ذلك يخجل من نفسه ويتراجع عن هذه اللعبة العنيفة ، ولم يكن الحكيم يظن أن حفيده إسماعيل ذلك الطفل الذى فى المرحلة الابتدائية يستطيع أن يوقعه هو « ابن الثمانينات » و « يشنكله » ويكسبه من أول جولة فى « الكاراتيه » بل من قبل أن تبدأ بينها جولة ، وكان من الممكن أن يصاب الحكيم فى هذه المغامرة التى قلبت نتيجتها كل حساباته عن قدراته وقدرات حفيده .

ونفض الحكيم سلباً من وقعته التى كانت لحسن الحظ على « مرتبة السرير » التى كانت قد فرشتها ابنته زينب على الأرض لتنام عليها هى وابنتها مريم بعد أن ترك حجرتها لوالدها لينام على سريرها أثناء فترة

زيارته لها بالإسكندرية حينما يترك حرارة القاهرة إلى نسيم عروس البحر الأبيض ، ورغم ما حدث للحكيم مع الكاراتيه فقد كان يهتم بمجلات الكاراتيه التي يجب حفيده الاطلاع عليها ، ومحضرها له . وأذكر في إحدى المرات حينما كنت بمكتب الحكيم في « الأهرام » أنه أخرج ورقة مكتوباً عليها تاريخ ورقم أحد أعداد مجلة « الكاراتيه » التي فاته الحصول عليها لحفيده ، وأعطى الورقة لأحد زواره الذي يعرف قدرته على الحصول على مثل هذه النوعية من المجلات ، وقال له مشجعاً سرعة إحضارها « سأعمل لك دعاية عند حفيدي » .

وبالرغم من ذلك الاهتمام من الحكيم بحفيده إسماعيل وهواياته فإن الحفيد لا يسكت عن إفزاع جده شأن كل الاطفال الذين يجدون استمتاعاً حينما يشعرون أن ضجيجهم له رد فعل لدى الكبار سواء كان رد الفعل هذا بالسلب أو بالإيجاب . فرحاً وسعادة وتشجيعاً ، أو نهياً وزجراً وتقريعاً ، وكثيراً ما يقوم الأب أو الأم بمداعبة الطفل حتى يبدو على أحدهما التظاهر بالخوف من حركة يديها الطفل ، فيكررها سعيدياً منشرحاً ظناً منه أنه بالفعل يخيف من يداعبه ، ولكن أحياناً ما يقترن موقف المداعبة بذكرى مؤلمة فيصبح تكرارها ولو من باب اللعب .. مفرعاً فزعاً حقيقياً ، كان مثل ذلك يحدث للحكيم عندما يمسك حفيده « بمسدسه اللعبة » ويخيف به جده الذي ينتابه الفزع ، كأن حفيده هذا عصاية تحوطه بمسدساتها ، ويقول له « يا إسماعيل أنزل مسدسك .. أنا لا أحب العنف » .. بل حتى مجرد أن يقوم الحفيد بحركة تهويش لجده يبدو على الحكيم الفزع ، لأن ذلك يعيد إلى ذهنه ذكرى شبيهة كانت أيضاً بسبب اللعب والتهويش وكادت تضع حياة وحيدة إسماعيل بسببها ، لولا أن أجله لم يكن قد حان بعد ، فقد كان لإسماعيل الابن « بندقية رش » أخذتها منه أخته زينب لتلعب بها معه وتقوم بتهويشه بإطلاقها بما يحدث

صوتاً يزعج ولا يصيب ، وفجأة تذكر إسماعيل أن البندقية محشوة « بالبارود » فقال لأخته مفزوعاً وقد أمسكت بالبندقية لتضبط فوهتها على وجهه « حاسبي .. حاسبي .. إوعى تضربى » ولكن « طلقة البارود » فى هذه اللحظة كانت قد انطلقت ، ولكن للطف الله مرت بجوار إحدى عيني إسماعيل الابن ، ولكن ذلك لم يمنع من أن تنال « زينب » علة ساخنة من والدتها ، إضافة إلى الرعب الذى أصابها نتيجة شعورها أن أخيها كانت ستحدث له وللأسرة مأساة بسببها .. ومنذ ذلك اليوم وهى والدها ينتابها فزع حقيقى بالوهم من مسدسات اللعب لاقتراها بذكرى يوم كانت ستحدث فيه مأساة ، ولذلك يكره الحكيم العنف ويمتته سواء كان حقيقة أو لعباً ، على أرض الواقع ، أو تمثيلاً على شاشة التلفزيون أو من خلال شرائط الفيديو التى يستأجرها حفيده من نوادى الفيديو .

وفى أحد الأيام التى جاء للحفيد زميلاه أحمد وحماة يزوران على غير موعد أراد أن يرحب بهما على طريقته ويستأجر لهما شرائط جديدة للكاراتيه ليتفرجوا عليها ، ولم يكن مع الحفيد فى ذلك اليوم « فلوس » ، ولم تكن أمه وأخته بالبيت فقد خرجتا لقضاء حاجة لهما ، وليس بالبيت سوى مديرته « منصوره » ، وليس معقولاً أن يطلب منها نقوداً ، فلم يجد أمامه سوى جده يطلب منه ستة جنيهات ، فانتهازها الحكيم فرصة ليعطى حفيده « موشحاً » ، أو درساً ينهيه به عن ذلك العيث قائلاً له : يابنى ابحث لك عن حاجة تنفعك .. « الفيديو » سيفسدك .. هى البلد ناقصة « فيديو » .

والطفل يسمع ولا يعى مما يقوله جده شيئاً ، فما علاقة البلد بالفيديو ، وما علاقة كل ذلك بالستة جنيهات التى طلبها لاستئجار شرائط فيديو ؟ أما علاقة توفيق الحكيم نفسه « بالفيديو » فليست بأفضل من رأيه

فيه ، فعندما حاولت ابنته أن تجعل له نوعاً من الاندماج بينه وبينهم لكي يشاهد معهم فيلماً على الفيديو ، أغرته بفيلمه « عصفور الشرق » الذي يظهر هو نفسه في بعض مشاهدته ، باعتباره يعرض لمرحلة من حياته الباريسية وحياته ككاتب في الأرياف ، إلا أنه لم يستطع استكمالها حتى النهاية .

ولكنه سأل حفيده عما إذا كان فيلم « غاندى » ، موجوداً بنادى « الفيديو » الذي يتردد عليه ، فنفى له أن « تكون مثل هذه النوعية من الأفلام موجودة ، فقال له :

ألا يوجد في ناديكم سوى أفلام العنف والكارااتيه؟! ولما طلب من ابنته أن تأتي له بفيلم « غاندى » الذي كانت قد شاهدته بالإسكندرية ، فإنها لم تنجح في الحصول عليه ، فلم يكن بهذا الفيلم الذي يحكى قصة الزعيم الهندي الكبير ، ما يغرى نوادى الفيديو باقتنائه ، وعندما شكوا الحكيم ذلك ، لصديقه يوسف جوهر لم يتعجب وقال له :
مرآة الفن عندنا تعكس شخصيات لها العجب .. الزبال والقران ، والكناس والقشاش ، والقشاش والحشاش .. أفلام الغيبوبة .. ما أنقل الكوابيس الجائمة على صدر الصحوه . ولكن مع ذلك فإن الحكيم لا يفقد الأمل ويقول لصديقه :

لا تحزن .. انظر إلى تمثال نهضة مصر لتعرف أن صدر مصر قوى .. تنفست عبر العصور برثة سليمة .

* * *

وإذا كان الفيديو ، لا يروق للحكيم ، فإن التليفزيون صديقه رغم أنه لا يعجبه ، فهو يفتحه في حجرته لمجرد أن يكون معه « أنيساً » فيجد في برامجه التي لا تسره شيئاً يجره إلى السرحان في موضوع مختلف ، يكون في بؤرة الشعور ، بينما برامج التليفزيون على هامش ذلك الشعور ، ولكن

عندما يعرض له مسلسل ، ويبدأ في متابعتها ، فإنه ينتقده بشدة ، فلا الحبكة القصصية التليفزيونية تعجبه ، ولا تسلسل الأحداث يرضيه ، ويروح بعقليته الروائية الفنية يبني جسماً جديداً للرواية ، وأشد ما يضايقه هو ذلك التظويل لمسلسل لا تحتاج قصته ولا تحتتمل ذلك المط ، فتقول له ابنته : معنى كلامك يا بابا إن المؤلف يعمل مسلسل على حلقة واحدة وينتهى ؟ وتضيف : إن المسلسلات نوع من قزقة اللب .. تسلية يعنى . ولكن الحكيم يرى أنه يجب أن يكون لكل شيء هدفاً ومعنى . وعندما عرضوا له يوميات نائب في الأرياف مسلسلاً باسم « مكتوب على الجبين » ، غضب وقال :

لا شيء يفلح لى فى التليفزيون .. وأنا أفهمتهم أن من يريد أن يفشل فليقدم عملاً من أعمالى .. ولكنهم لا يصدقوننى .

ومن أمتع الأوقات التى يقضيها الحكيم أمام التليفزيون ، عندما يكون هناك فيلم لنجيب الريحاني ، ويقول إن هذا الفنان الميت ، يضحكه أكثر مما يضحكه الممثلون الأحياء ، لدرجة أنه يلعن المسئول عن إهمال تسجيل كل أعمال هذا الفنان الذى يضحك ويضحكنا ، ويبدع ويمتعا وهو فى قبره عظام نخره ، ويرى أن هذا الميت أكثر حياة من هؤلاء الأحياء . ولكن ضحكات الحكيم على فيلم للريحاني ، ينكمش أثرها حينما يرى إهمالاً فى البيت بعد أن ينام كل من فيه ، فتركوا ضنبوراً مفتوحاً ، أو مصباحاً كهربياً مضاءً من غير لزوم ، أو إسرافاً فى أى ناحية من نواحي الحياة التى تمارسها أسرته .. إنه يغضب ويشور ، ويحاول أن يعلمهم كيف يكونوا اقتصاديين فى استهلاكهم .

فمثلاً عندما يجد بالحجرة التى يذاكر فيها حفيده أو حفيدته ، ثلاث مصادر للإضاءة :

المصباح العادى ، مصباح الأباجرة ، مصباح نيون .

فإن تعليماته لها هي الاكتفاء بمصدر إضاءة واحد فقط من هذه المصادر الثلاثة ، ويقول : إن البلد مديونة .. والدولة تدعم الكهرباء .. ويجب أن نقدر ظروفها .. ونحارب مظاهر الإسراف في حياتنا ونرشد الاستهلاك . وإذا كانت ابنته تعي هذه التعليمات وتنفذها ، فإن حفيديه في أغلب الأحيان يكونان في واد آخر ، فما لها والدولة وظروف البلد وترشيد الاستهلاك .. إن هذه أمور أبعد ما تكون عن عالمها ومداركها ، ولذلك يكتشف الحكيم كثيراً ، كأنه يحرق في البحر ، فيجد حفيديه قد غلبها النوم . وتركوا التلفزيون والفيديو مفتوحين ، وغالباً ما تتلقى زنب اللوم والتأنيب ، ولكن الحكيم يحرص في اليوم التالي بعد عودة حفيده إسماعيل من المدرسة أن يبلغه غضبه منه لأنه في نظره يعتبر ، رجل البيت المسئول الذي يجب أن يتعود تحمل مسؤولياته مهما كان صغيراً ، ويقول له « أنا زعلان منك يا إسماعيل » ، فيسأله الحفيد عن السبب فيخبره بنومه قبل أن يطفىء الفيديو والتلفزيون وهذا غير معقول وغير مقبول ، فيعده الحفيد أن ذلك خطأ لن يتكرر ، ولكن الحكيم لا يثق إلا أن يتأكد بنفسه فيظل ساهراً بحجرتة أمام التلفزيون حتى نهاية الإرسال ثم يغلقه ويقوم بالتفتيش على البيت كله ليطمئن إلى أنه ليست هناك « حنفيه » يتسرب ماؤها ، أو « لمبة » يضيع ضوءها ، أو « بوتاجاز » لم يحكم غلقه ، ثم يمر على حجرة حفيديه ليتأكد من أنها لم يتركا التلفزيون والفيديو دون إغلاقها ، كما لا ينسى أن يمر على ابنته ، وإذا اكتشف أن أحداً لم يتم بعد ، يقول له « تصبح (أو تصبحين) على خير » ، ثم يأوى هو إلى فراشه بعد أن يكون قد اطمأن على البيت ومن فيه .

وفي الصباح يوقظ حفيديه للذهاب إلى المدرسة : « قم يا إسماعيل الساعة ستة .. سيارة المدرسة زمانها في الطريق » .. فالحكيم حريص على انضباط حفيده في ذهابه إلى مدرسته ، فهو يراه مجتهداً ويعجب لذلك

منه ، وقد أعجبه كذلك ما فوجيء به من حفيده حينما أضاف إلى هواياته المزعجة هواية أخرى لكنها هادئة ، إنها هواية جمع طوابع البريد ، وراح يتفق على هذه الهواية بسخاء فيشترى الألبومات والطوابع ، فرأى الجد أن يشجع هذا الاتجاه الجديد لدى حفيده فكان يجلس لينزع طوابع البريد من الخطابات التي تصله من قرائه من مختلف البلاد العربية والأجنبية ، ويعطيها لحفيده مشجعاً إياه على الاستمرار في هذه الهواية قائلاً له : إنها هواية الملوك « ، وكانت الأم تشجع ابنها هي الأخرى وتقطع له قصاصات الصحف أو المجلات التي تتحدث عن قصة طوابع البريد ، إلى درجة أنها كانت ترسلها له في حكايات حين يكون بالإسكندرية مكانه المفضل الذي يحلو له أن يقضى أجازاته فيه ، ولكن يبدو أن هذه الهواية - جمع الطوابع - لم تكن إلا نزوة عابرة من نزوات الأطفال لم يستمر فيها الحفيد أكثر من ثلاثة شهور ، بينما جده لا يدرى بذلك ، وظل حتى وفاته يجمع له الطوابع ، فتأخذها أمه وتحفظ بها دون أن تخبر والدها بإهمال حفيده لهوايته الجديدة حتى لا تجعله يشعر بضيق أو غضب .

وكانت الابنة تحاول تعليم والدها هواية لعب « الكوتشينة » لكنه لم يستطع أن يستوعبها لاعتمادها على الأرقام التي لا يجيد قراءتها ، وكذلك لم تفلح زوجته من قبل أن تجعله يتعلم لعبة « الطاولة » ، رغم تعمدتها أن تخسر له .

ولم يفلح الحكيم في تعلم أى هواية ، فرياضته هي العقل ، والمشى ، فعقله متحرك دائماً بالتأملات والأفكار ، وقدميه متحركتان كلما أمكنه أن يحرركهما ، لأنه لم يكن يطيق الجلوس كثيراً ، وإن كان قد اضطر إليه لظروف صحية ، ولذلك كان يتعجب كثيراً عندما يتذكر صديقه مصطفى أمين ويتساءل كيف قضى سنوات سجنه بغير حركة .

فلم يكن الحكيم يتحمل السكون حتى أنه في بعض الأحيان يقوم

لإحضار الأشياء التي طلبها قبل أن يحضروها له ، كما حدث ذات يوم من شهر رمضان بعد أن خرج من المستشفى في بداية مرضه ، حيث كان ينام بعض الوقت وهو جالس على كرسيه كنصيحة الأطباء له كبديل للسريير ، حفاظاً على سلامة نفسه ، لذلك كان الحكيم يفضل أن يغمض عينيه بعد العصر وهو بين النعطة والنوم في شبه إغفائه ، حتى ينطلق مدفع الإفطار ، وهو لم يكن مسموحاً له بالصوم في مثل هذه السن المتقدمة وما يصاحبها من أمراض تقتضى تناول الأدوية في مواعيد دقيقة ، ومع ذلك كان لا يأكل كثيراً .. كان يكفي بقطعة « كيك » وكوب من الشاي ، أو بعض السوائل التي تعينه للحصول على الطاقة التي تحفظ له تماسكه الجسماني ويقللته الصحية ، فكانت ابنته زينب عندما يحين موعد الإفطار تحضر له زجاجة مشروب بارد من الثلاجة الموجودة بحجرتة ، ولكن الحكيم في أحد تلك الأيام الرمضانية وقد ضرب المدفع وأذن المغرب لم ينتظر حضور ابنته فحاول القيام بنفسه نحو الثلاجة لتمشية قدميه ، ولا تزال عينيه نصف مغمضتين والحجرة غير مضاءة بعد ، فكانت النتيجة هي وقوع الحكيم بين كرسيه ومكتبه ، في نفس الوقت الذي كانت زينب قد حضرت لتفتح الثلاجة ، فتركها ، صارخة لوقوع والدها على الأرض ، وسارعت لتعاونه على النهوض ، واتضح بعد أن استدعت له الطبيب « حسين عبد الفتاح » كبير مستشارى العظام بقصر العينى وأجرى له الأشعة اللازمة ، أن الحكيم قد أصيب بكسر في أعلى الذراع اليسرى ، وتم تحديد مكان الكسر وأمكن على إثرها إعادة العظمة المنقولة إلى مكانها .

ورغم ما قد تكون قد سببته تلك الوقعة للحكيم من آلام إلا أنه لم يشكو أو يتأوه أو يظهر تألمه حتى لا يزعج أحداً من أفراد أسرته ، وقد ورث منه ابنه الراحل إسماعيل قدرته على تحمل الآلام ، ولكن حينما

يحدث أى شىء ولو بسيط لأحد أفراد أسرة الحكيم الجديدة (ابنته وحفيديه) كان الحكيم يزعج ويظل قلقاً لا يهدأ حتى يتم علاجه ، فلو حدث مثلاً أن « عطس » أحدهم ، فإن الحكيم يفرض على جميع من فى البيت أن يتناولوا أدوية الزكام قبل أن يناموا حتى لا تنتقل العدوى إلى بقية أفراد الأسرة ، ولا بد للجميع أن يطيعوا الأوامر كأنهم مجندون بالجيش .

وكثيراً ما استغل حفيدى الحكيم خشيته من « الزكام » فيمثلان عليه إصابتهما به .. يحدث ذلك عندما يجمعها لنصحها وإعطائها دزوساً ومواعظ فى الأخلاق وطاعة أمهم وعدم الإسراف فى استهلاك الكهرباء .. إلخ .. فلا يتحملان ، ويصابان بالملل شأن جيلهم أو أى جيل لا يطبق نصائح جيل سبقه ، فما بالها وبينها وجيل جدها ثلاثة أجيال ، ولا يستطيع حفيدى الحكيم أن يخبراه أو يردا عليه بللها ، وفى نفس الوقت لا يستطيعان أن يتركاها يتكلم وحده ، ولذلك لا يجدان وسيلة للهروب من تلك النصائح سوى اتباع الشقاوة واستخدام الأسلحة التى يستسلم أمامها جدهما ، ومنها سلاح « العطس » ، عندما تشعر مريم وإسماعيل بالملل ينظر كل منها للآخر دون أن يشعر الحكيم ، إشارة إلى أنه لم يعد أمامها مفر سوى أن يتظاهر أحدهما بإصابته بالزكام ، وعادة ما يتولى هذه التمثيلية « إسماعيل » « ١١ سنة » فيقوم بافتعال « العطس » ليوهم جده أن عنده زكام ، فيتوقف الحكيم عن الاسترسال فى نصائحه - وهذا هو المطلوب - ويقول : يا ولاد أتريدون أن تنقلوا إلى العدوى؟! ويقوم الحكيم مسرعاً وقد تحول من جد عجوز إلى شاب يقفز هرباً من الزكام كأنه حصان فتى ، وسط ضحكات حفيديه ودهشتها ، ويوم أن كان الحكيم بمستشفى المقاولون حضرت إليه الفنانة سهير المرشدى وحدها حينها كانت تتردد عليه هى وزوجها للانتهاج من وضع

اللمسات الأخيرة لمسرحية « إيزيس » التي ستقوم ببطولتها ، فقال لها :
 أين كرم مطاوع ؟ ، فقالت له إنه يقف خارج الحجرة لأن عنده
 « برد » ، فيطلب منها أن يظل خارج غرفته ولا يدخل عليه إلا حين
 يشفى من نوبة « البرد » التي أصابته . ولأن المدارس تفتتح في فصل
 الشتاء ، وغالباً ما يحلو النوم في الصباح وقت الاستيقاظ للذهاب إلى
 المدرسة ، فإن الحفيدين ، يفتعلان الإصابة بالانفلونزا ، فيطلب الحكيم من
 أمهما ألا تجعلها يذهبان إلى المدرسة حتى يستريحا ولا يتضاعف مرضهما ،
 ولكن الأم كانت تفهم مكر أبنائها فتصر على ذهابها إلى المدرسة وتقول
 لوالدها : بصراحة يا بابا هم يتمارضون حتى لا يذهبون للمدرسة « ،
 ولكن الحكيم لا يصدقها ويصمم على عدم مغادرة حفيديه لسريهما وهما
 على حالتها هذه في هذا الوقت المبكر من صباح الشتاء ، وما بين إصرار
 زينب على سلامة أبنائها وإصرار الحكيم على مرضهما ، وهو يقول لها
 أتريدين موتهم « ؟! تنجح حيلة الحفيدين ويحصلان بسبب « عطسة »
 افتعلها على أجازة من المدرسة ثلاثة أيام ، ويومين نقاهة ، حسب
 تعليمات الحكيم الصحية لسلامة حفيديه ، ويا ويل إسماعيل حينما يراه
 جده « بالشورت » أو « المايوه » في « عز » برد الشتاء ، فالحفيد معتاد
 على جو الإسكندرية ولكن جده عندما يراه هكذا ، يكاد يموت عليه من
 الخوف ويقول له صارخا فيه « أنت بهذا تعرض نفسك للهلاك .. ستأتى
 لك أنفلونزا . ستأتى لك نزلة شعبية » .. ولكن إسماعيل كأن الكلام ليس
 له ، وكثيراً ما يحاول مداعبة جده إلى حد الإستفزاز ، فعندما ظهرت في
 إحدى السنوات موضة البنطلونات المتسعة بشكل غير عادى - فكلم يجن
 مصمو الموضة فيخرجون بتقليعات تثير الجنون - جاء الحفيد يرتدى
 بنطلونا من هذه البنطلونات ودخل على جده الذى راح ينظر إليه بدهشة
 واستغراب ، ولم يصدق إلا أن حفيده قد ارتدى بنطلون أبيه فقال « انت

لا بس بنطلون أبوك ولا إيه « ؟! فقال له الحفيد « أبدأ إنه بنطلوني وهذه هي الموضة » ، فقال الحكيم والدهشة تكاد تعقد لسانه : هذه هي الموضة ؟! فيؤكد الحفيد نعم هذه هي الموضة « ، فأعاد الحكيم نفس سؤاله وكرر حفيده نفس الجواب ، والحكيم ينظر إليه باستغراب ولا يصدق ما يراه ،... ولكن ذات مرة استفز الحفيد ، جده إلى درجة جعلته يمد يده عليه لأول مرة .

* * *

ذات يوم كان الحكيم يجلس على سرير ابنته زينب ومعها الحفيد ، وشقيقه الصغير محمد الذى جاءت الشغالة الجديدة « نجاح » لتأخذه من أجل إطعامه طعام العشاء ، ولكن شقيقه إسماعيل أمسك به وراح هو والشغالة يتجاذبان ، فهو لا يريد لشقيقه أن يكون فى رعاية شغالة لأنها فى نظره تأخذه وتهمله ، فصمم فى ذلك اليوم على ألا يذهب شقيقه مع الشغالة التى كانت هى الأخرى مصممة على القيام بواجبها تجاه الطفل ، وكلمة منه ، وكلمة منها ، ارتفع خلالها صوته ، مما أثار جده وجعله يضربه « بالفوطة » على ظهره مع « قلمين » على وجهه وهو يقول له بانفعال « اسكت .. بطل زعيق .. انت تاعب أمك ولا يكفيك غير إنك تطفش الشغالة » . وخرج الحفيد يبكى ، بينما نام الحكيم على السرير شاعراً بالتعب ، بينما اتجهت زينب بوجهها إلى الأرض لتخفى ضحكها المكتوم .. فما والدها قد ضرب ذلك الضرب الذى يجعله يشعر بالذنب والاستلقاء على السرير متعباً وهو يندم على مديده على حفيده ، كما أن ضرب الحكيم لم يوجع حفيده ليبكي ، فلطالما ضربته أمه عقاباً له على شقاوته أو إخلاله بنظام البيت ، فهى تحاول إيجاد التوازن بين ديمقراطية والدها مع أحفاده ، بوجود نوع من الردع الذى ترى ضرورة استخدامه فى بعض الأحيان حتى لا يشعر أبناؤها أن ديمقراطية جدهم معهم تعنى الفوضى ، فهو يمثل

جانب الرفق والرحمة ، في الوقت الذي تمثل هي فيه جانب الشدة والحزم .. فرغم أنها أم لهم فهي أب لهم أيضا بعد غياب والدهم عنهم بانفصالها عنه ، ورغم ما يناله الحفيد من ضرب موجع ومؤلم من أمه إلا أنه لا يتأثر أو يجعل من ضربها له قضية ، ولكن حين ضربه جده راح يجهش بالبكاء واستمر في بكائه المتصل بعد أن ذهب إلى حجرته ، فدخلت عليه أمه وقالت له وهو لا يزال يبكي : هل تريد إنك تفهمي إن ضرب جدك لك أحزنك ؟

فقال الحفيد وكلماته تكاد تجسها دموعه : أنا لم أحزن يا مامي لأني لم أحس بضربه لي لأن لو دفعت جدي بيدي سيقع (وقد سبق أن فعل ذلك حين أراد أن يلاعبه كاراتهيه) وأضاف الحفيد لوالدته : لكن المشكلة إنه غضب مني وضربني « . فمشكلة الحفيد ليست في أن ضرب جده قد ألمه ولكن الذي ألمه هو أن يغضب منه جده وتمتد يده عليه .. ذلك ما كبر في نفسه .. إنه يحب جده ويقدره ولم يكن يتصور مها حدث منه أن يصل الأمر إلى هذا الحد ، وذلك ما أثر في الحكيم أيضا وأتعبه نفسياً فلم يكن يرغب أن تتطور المسألة إلى هذه الدرجة ، فهو يجد في حفيده عوضا عن ابنه الراحل ، ويتمنى أن يراه رجلاً يعرض أمه عن معاناتها ، ومن أجل ذلك اضطر إلى زجره عن التناول على الشغالة التي أتي بها لتريح ابنته من شغل البيت ، وتتفرغ لرعاية أبنائها ومتابعتهم في دراستهم ، والحكيم يعرف المصاعب التي تكتنف الحصول على شغالة في هذه الأيام الصعبة ، ومن الممكن أن تجعل الشغالة الجديدة من تناول حفيده عليها قضية وحجة تترك بسببها المنزل ولا أحد يلومها ، والحكيم لم يضرب حفيده بالمعنى الذي يمكن أن يسمى ضرباً وإنما هو نوع من التعبير عن سخطه على حفيده وإظهاراً لغضبه وضيقة من موقف معين ، نسي خلاله حفيده وجوده وراح يرفع صوته على الشغالة مما قد يتسبب في تركها البيت ، وما قد

يترتب على ذلك من متاعب لأمه هي في غنى عنها ، فكان ضرب الحكيم لحفيده أهون الضررين ومع ذلك تأثر ، وتأثر حفيده كما لم يتأثر من قبل ، وواصلت والدته زينب التحدث إليه وهو لا يزال يبكي : هل المفروض ان جدك لا يضربك ؟

فصمت الحفيد عن الرد وإن لم يصمت عن البكاء المتهدج فقالت له أمه : لو أنت ترى أنه ليس من حق جدك عليك أن يضربك يبقى هنا من حقدك إنك تحزن .. أم أنت ترى أنه من حقه أن يضربك ؟ فقال الحفيد ولم تزل دموعه تتساقط تأثراً : لكن كان المفروض ان جدو يتفاهم معي .

قالت الأم : هو انت تركت وسيلة للتفاهم . قال الحفيد ولا زال أثر البكاء واضحاً في نبرات صوته : يعني إيه ؟ قالت الأم : لو انت تفاهمت مع البنت الشغالة كان هو تفاهم معك .. لكن أنت تطاولت بالكلام معها فمن حقه أن يتصرف معك بما أغضبك . فقال الحفيد بعد أن نفذت حيلته في الرد على منطلق أمه : أنا عموماً لن أكلم جدو مرة أخرى .

قالت الأم وقد نجحت في إقناع ابنها بخطأ موقفه : إنت حر تكلمه أو لا تكلمه ولكنك في النهاية غلطان .

وظنت زينب أنها الخصومة بين الحفيد وجده ، ولكن الحكيم استيقظ مبكراً كعادته في الساعة السادسة صباحاً « كالمنبه » ليوقظ حفيديه مريم وإسماعيل ليذهبا إلى مدرستيها ، فقد أوكلت أمهما إليه مهمة إيقاظهما كل صباح راجية منه أن يدعها نائمة لأنها تكون طوال الليل ساهرة مع حفيده الصغير « محمد » الذي يسبب لها قلقاً ، شأنه شأن الأطفال في مثل عمره (سنة ونصف) حتى ينام وتنام معه أمه في ساعة متأخرة مما تحتاج معه لساعات أخرى من الصباح تعوض بها ساعات نومها المضطربة .

ولما عاد الحفيد إسماعيل من مدرسته وجد ، جده قد فتح له صفحات الصحف كعادته على صفحات « الرياضة » التي يحبها ، ولما دخل الحفيد ليأخذ تلك الصحف استوقفه جده ، وانتهى التوتر بينهما ، ولما رأتهما زينب هكذا ، قالت لابنها : هل تصالحت مع جدك ؟ فقال لها مبدئياً شيئاً من الدهشة لمثل هذا السؤال : وهل كنا متخاصمين ؟ !

ويعود الحفيد لشقاوته كأن شيئاً لم يكن ولا تسلم من عبثه عجلة جده الطبية التي يستعملها في تحريك قدميه كنوع من العلاج الطبيعي حسب رأى الأطباء ، فينتهز الحفيد فرصة خروج جده إلى مكتبه بالأهرام ليلعب بعجلته ، ولكن الحكيم يكتشف أن حفيده لم يدع عجلته كما هي ، فهو يحفظ رقم « الكيلو متر » الذي توقفت عنده العجلة في آخر مرة استعملها فيها ، ولذلك عندما يعود ولا يجد « عجلته » مضبوطة عند الرقم الذي سجلته يعرف أنها لم تسلم من عبث حفيده « العكروت » كما كان يناديه في حالة مداعبته له ، وهي كلمة يقولها لأحفاده ، الذين لا يدرون أهي « لفظة » ذم أم مدح أم هي خليط من هذا أو ذاك . ولا يعارض الحكيم أو يمانع في أن يمارس أحفاده « اللعب » شريطة ألا يشغلهم ذلك عن واجباتهم المدرسية ، ولكن أهمهم لا تنسى ذلك فهي تحرص على استفادتهم بالعام الدراسي منذ بدايته ، فتشترى لهم كل أدواتهم المدرسية التي تكفيهم طوال السنة الدراسية ولكنها لم تكن تكفيهم .. فما يثير عجب زينب من أبنائها وتساؤها : كيف يستهلكون كل أدواتهم المدرسية بهذه السرعة ؟! ولكنهم لم يكونوا يستهلكونها .. لقد كانت تضع منهم .. أين ؟ لا تدري ولا هم يدرون ، ولكن الملفت للانتباه أنه إذا احتاج إسماعيل أو مريم إلى قلم أو مسطرة أو « براية » أو « ممحاة » - استيكة - ، كان جدهم يعطيها لهم ، فمن أين يأتي بهذه الأشياء ؟.. إن كل الهدايا من أجندات وأقلام حبر أو رصاص مما تهديه

المكتبات إلى الحكيم منقوشاً أو مكتوباً عليه إعلانات عنها بمناسبة رأس السنة الميلادية ، لا يحتفظ الحكيم بشيء منها ماعداً أجندة الأهرام التي يستبقها لنفسه رغم أنه لا يستعملها ، فالحكيم لا يستعمل الجديد ولا يجب الاحتفاظ به ، إنه يهديه لأحفاده أو ما يفيدهم منه ، وهدى بعضه للمقربين منه ، فمن أين يعطى الحكيم أحفاده ما يحتاجون إليه من أدواتهم المدرسية ؟

لقد اعتاد الحكيم المرور في حجرة أحفاده بعد ذهابهم إلى المدرسة وإذا وجد أدواتهم المدرسية لملاقة في غير المكان الذي يجب أن يحتفظوا فيه بها ، فإنه يجمعها ويحفظها هو بمكتبه إلى أن يحتاج أحفاده إلى شيء منها حينما يجدون أن الرصيد الذي تحتفظ به أهمهم لهم قد نفذ ، ومن ثم تصبح مضطرة لشراء أدوات مدرسية جديدة ، وهي تضرب كفا على كف متسائلة عن كيفية استهلاك ما اشترته وهو يكفيهم سنة دراسية كاملة ، فلا يمكن أن يكون إسماعيل ومريم قد استهلكوها ، فلا يبقى إلا الاحتمال الثاني بأنهم أهملوها وأضاعوها ، فيظهر حينئذ الحكيم ليعطى حفيديه ما يحتاجون إليه من أدوات مدرسية ، مع شكرهم له وهم لا يدرون أنها نفس أدواتهم التي ألقوها دون أن يحافظوا عليها فاحتفظ لهم هو بها ، واكتشفت أيضاً أن والدها كلما أتى « صابون » الشهر يتسلل من ورائها ، ويأخذ ما بين ثلاث وأربع قطع من الصابون يستبقها بمكتبه حتى « ينفذ » ما في البيت من صابون ، فتذهب إليه إبنته تطلب منه ما عنده من صابون وتقول له « أنا عارفه إنك أخذت صابون من الدولاب » كأنما تريد أن تسأله بذلك عن السبب فيجيئها « لكنك لا تعرفين لماذا أنا أخذت الصابون .. لأجل لما تحتاجيه تلاقيه عندي » !

وكان مما يحتفظ به الحكيم كذلك بمكتبه « البسكويت » الذي كان يتناوله مع الشاي ، كما كان يحتفظ كذلك « بالمبوني » الذي يستحلبه

بعد الغداء كمادة يعتبرها هاضمة ، أما « البيروسول » فيحرص الحكيم على ألا ينقطع وجوده من مكتبه لاستخدامه إذا اضطره ذباب أو ناموس إلى استعماله .

كذلك كان بمكتب الحكيم بيئته ثلاثة أكواب ، يشرب في إحداها ، ويضع طقم أسنانه في الآخر ، أما الكوب الثالث ففائدته أو دواعى استعماله لا يعرفها سوى الحكيم نفسه ، أيضاً كان الحكيم يحتفظ بشاى وسكر بمكتبه ، والذي كان يحتوى كذلك على « البيجاما الكستور والروب » مما كان يرتديه في البيت لمقابلة ضيوفه ، وهى من الهدايا التقليدية التى كانت تهديها له ابنته في عيد ميلاده ، فيتظاهر بقبولها ، ويرتديها لبعض الوقت إرضاء لها ، ولكنه كان حريصاً على استعمال ملابسه القديمة حتى بعد أن أكل منها الزمان وشرب ، فيطلب منها ترميمها ، وعندما أعطاها « جاكته » لتستدقئ بها شتاء ، وجدت أن « العتة » قد أوغلت فيها ، فطلب منها الحكيم ، أن ترسلها « للرفة » ، ففرمت من أجل ذلك خمسة وأربعون جنيهاً ، فقال لها : ولماذا لم تشتريها « جاكته » أخرى جديدة بدلا من القديمة فلم أعد أريدها ؟ فتقول له : ولكنى أريدها للذكرى .

فقد كان الحكيم لا يترك استعمال أدواته القديمة بسهولة ، فلا يفارقها حتى تفارقه ، بالاستهلاك أو عدم الصلاحية للاستعمال ، مثل ذلك القلم الرصاص الأصفر الذى منذ أن وعى حفيده على الدنيا وهو يرى جده يستعمله ، وهو متعجب من عدم ذوبانه رغم كثرة الاستعمال ، ولكن الحفيد لم يكن يعرف أن جده كان يستبدله بقلم أصفر جديد ، فيبدو لمن يراه أنه لا يذوب ولا يفنى .

واعتراز الحكيم بالقديم لم يمنع استقباله للجديد بفعل أحفاده ، الذين لم يكن هناك أكثر منها جديداً طبع حياته ، مما جعله يحاول أن يعوض معهم

طفولته وأبوته . وحين يستعيد ذكرياته لا يرى فيها إلا اليوم الوحيد الذى يشعر فيه بجديد ، وهو يوم العيد الصغير ، والكبير ، والذى كان هو الفرصة الوحيدة لشراء ملابس جديدة له وإخوته ، فينتقون ما يحلو لهم ، وغالباً ما تكون من الأصناف الغالية ، ولكن الأب يختار لهم ما يناسب جيبه ، ويمضى الحكيم وإخوته مستسلمين ، حتى العيدية التى كان الحكيم يحصل عليها فى طفولته وهى خمسة قروش كان يحتفظ بها طوال أيام العيد ، ثم يعيدها مرة أخرى لا ينفق منها شيئاً .

أما العيد ، فيحتفل به أحفاد الحكيم ، بالحصول منه على النقود ، فيحرصان على الاستيقاظ مبكراً ، للحصول من جدهم على « العيدية » ، بينما هو مفتقد لمعنى العيد ، فكل الأيام متشابهة لديه خاصة بعد أن رحلت زوجته ، ولحق بها ابنها ، فقد كان وجودها يجعله يشعر بمعنى العيد وهو من المناسبات القليلة التى كانت تجعله يحتفل بها ، حيث تجتمع فروع الأسرة فى بيت العائلة الكبير ، فيجلس الحكيم بينهم وتدور مناقشات وسط ضجيج الأولاد الذين يجعلون للعيد متعته وهيجته .

أما اليوم بعد أن رحلت الزوجة والابن ، فإن أيام العيد تتساوى مع أيام أخرى وتتشابه فيما بينها ، وإن كان يحرص على أن يشعر أحفاده بالعيد ، فيبسط يده معهم بالعيدية ، ثم يخرجون ، لتجلس ابنته معه بعض الوقت ليمر اليوم كأى يوم .

- أما بالنسبة للأحفاد فليس كأى يوم ، فإسماعيل مثلاً يحصل على عيدية كبيرة ، وصلت فى عيد من أعياد الأضحى إلى مائة جنيه ، لعل الحكيم أراد بها أن يعوض حفيده عن فلوس الرحلات التى كانت تأخذها أخته « مريم » ، بينما هو لا زال فى المرحلة الابتدائية ، والرحلات المدرسية قليلة ولا تخرج عن دائرة حدود القاهرة ، لذلك كان يطالب جده

بمساواته مع أخته ، وأن يعطيه مثلما يعطيها ، فيصمت الحكيم ، وكان حفيده قد وضعه في مأزق منطقي ، ولكنه يستدرك قائلاً كأنه وجد مخرجاً « كل فلوس الرحلات سأعطيها لك عندما تدخل الإعدادي .. فأنا أدخرها لك .

وإذا كان العيد معروفاً بعاداته ، فإن الحكيم كان ينكر هذا الذي يسمونه « عيد الميلاد » ويصر على الاحتفال به الأولاد والأحفاد ، ومع ذلك كان يحرص على مشاركة حفيده احتفاله بعيد ميلاده حيث يحضر أصدقاء اسماعيل لتهنئته وتقديم الهدايا له والتقاط الصور التذكارية معه في جو من البهجة تظلل الزينات والبالونات وتلتهم فيه « التورتات » و « الجاتوهات » ويظل الحكيم في حجرته إلى أن يحين موعد إطفاء الشموع فيحضر ليقبل حفيده ويطفئ معه وأصدقاءه شموع عيد ميلاده بل ويعني معهم أغنية عيد الميلاد الشهيرة في مثل هذه المناسبة ، ويجلس مع أصدقاء حفيده لمدة حوالى عشر دقائق يسألهم عن أحوالهم وتقدمهم الدراسى وبعد أن يطمئن عليهم يتركهم لسرورهم ثم يعود مرة أخرى إلى حجرته يسرح في مستقبل يرى فيه حفيده رجلاً يعين أمه على مسئوليات الحياة .

obeikandi.com

دلوعة جدها

من حفيدة الحسن " مرهم "

مع خبائثه

توسل

● النصائح الوجيهة في تربية

الحفيدة .

● مواجهة بين الجد وحفيدته !

إذا كان الحكيم قد راح يعد حفيده إسماعيل ليكون رجلاً مسلحاً بالعلم في حياته ليخوض غمارها ومسئولياتها ، فإن الحفيد كان يعد نفسه من واقع هواياته العنيفة « كالكاراتيه » لكي يصير في المستقبل ضابطاً لمكافحة الإرهاب ، بينما كان جده يحارب تلك الظاهرة الكريهة بفكره وكلمته . ورغم أن الحكيم لم يمتد به العمر ليرى حفيده رجلاً ، حيث تركه إلى الدار الآخرة وهو لا يزال بعد في المرحلة الابتدائية ، فإنه في الفترة التي عاشها مع أحفاده كان مهتماً بإعداد مريم لتكون ست بيت ممتازة ، ولذلك حينما كانت ابنته زينب تأتي لتقول له « الشهادات وصلت » . لم يكن يهتم بنجاح حفيدته أو عدم نجاحها ، ويطلب من ابنته استبعاد شهادة مريم قائلاً لها : لا تأتي لي بدرجاتها ولا تجعلها تأتيني بهذه الدرجات لأنها من يوم ما جاءت لم أر لها درجة عليها القيمة .. لا يهمني إنها تنجح أو لا تنجح .. لكن الولد يهمني إنه ينجح .. إنما الذي يهمني في البنت إنها تعرف تطبخ .. علميها إنها تكون ست بيت لأن الزمن القادم سيحتاج لست البيت أكثر من حاجته للمرأة العاملة » .

فتقول له زينب : يعني يا بابا لا داعي لتعليم مريم ؟ » .

فيصح لها الحكيم مقصده ويقول :

أنا لست ضد تعليم مريم .. فلتتعلم وتأخذ شهادة إلى حد ما .. شهادة متوسطة أو عالية على حسب قدراتها .. ولا يهم إنها تكون متعلمة تعليماً عالياً أو مثقفة ثقافة عالية .. يكفي أن تكون نصف متعلمة أو نصف مثقفة .. المهم انها تعرف تتعامل بفهم ووعي كربة أسرة وست بيت .. لأن الزوجة الصالحة هي التي أستطيع أن أكل من طهي يديها طبقاً واحداً شهياً .. وستفرحيني يوم ما تقولي لي ان صينية البطاطس عملتها مريم ..

وأن يلبس زوجها من صنع يديها رداء صغيراً ولو طاقية نوم كستور .. ويجد حسن ذوقها في ملابسها وزينتها ونظام بيتها . ومع ذلك كان يهتم بتثقيفها ، فأهداها أول كتاب تعلم فيه الفرنسية ، في نفس الوقت الذي يشجع حفيدته على أن تسلك المسلك الذي يجعلها ست بيت ناجحة فيقول لها :

ستفرحيني يوم ما أدخل عليك وألاقيك منظمة حجرتك من غير ما تنتظري مريبتك .. لازم تعتمدى على نفسك .

بل أراد الحكيم أن ينتقل في توجيهه لمريم من النصائح والكلام النظرى إلى الممارسة العملية ، فطلب إليها أن تتولى مسئولية ميزانية البيت ، وأعطاها المصروف في آخر صيف قبل الذى توفى فيه ، وكانت مريم ممسكة متشقة إلى حد لم يتعود عليه بيت آل الحكيم في نفقاتهم . ولم تكن الحفيدة تنسى حقوقها أو ماتعتقد أنه حق لها ، فتنتهز أى فرصة للحصول على النقود ، سواء في الأعياد ، أو حينما تنجح في الامتحانات ، أو حينما تقضى حاجة لجدها ، أو حينما تريد الاشتراك في الرحلات المدرسية ، وكانت في المرحلة الإعدادية ، بل حينما تكون هناك منحة قررتها الدولة للموظفين فيها ، كانت مريم تسأل جدتها ، عما إذا قد أعطى المنحة لأمها حتى تنال منها نصيبها ؟

ويضحك الحكيم لذلك ، وأحياناً يوافق ، وأحياناً أخرى لا يوافق ، ولكنه في أغلب الأحوال يعطى وبسخاء ، ومن الغريب أن الحكيم من الممكن أن يعطى مبلغاً كبيراً ، ولكنه قد يبخل إذا كان المطلوب منه مبلغاً ولو صغيراً جداً .

غير أن المهم في الأمر أنه إذا طلب منه أحد من أفراد أسرته مبلغاً من المال ، فإن على هذا الطالب أن يقنع الحكيم ، بالمنطق الذى لا ثغرة فيه

بما يريد الفلوس من أجله ، ثم لا يسأل الحكيم بعد ذلك عما أنفقت فيه لأنه لا يهتم بتتبع مسار صرفها ، ولكن يكفيه أن يكون طالب الفلوس منطقياً ولديه حججه المقنعة فيكون تلبية الحكيم لطلبه مكافأة على حاجته ومنطقه ، لأنه رجل فكر ومنطق ، رغم أنه قد يعلم فيما بعد أنه لم يكن وراء منطق وحجة من قصده في « نقود » قضية حقيقية ولكنه لا يجب أن يخرج أحدًا ، وكثيراً ما يكون الحكيم في حجرته المغلقة عليه ، إلا أنه مع ذلك كان يحس بكل صغيرة وكبيرة تحدث في البيت ، مثلاً لو جاء ضيف لزوج ابنته - قبل وفاته - كان يعرف من هو ذلك الضيف وكم استغرقت مدة زيارته .. لقد كان الحكيم رب الأسرة مثل الرادار الذي يستكشف ما يحدث في بيته حتى وهو بين جدران حجرته المغلقة ، بل بنظرة واحدة منه لمن في البيت يستطيع أن يعرف كيف تسير شئون البيت ، ولذلك كان الجميع يحسبون له ألف حساب .

وإن كانت حفيدته مريم قد استطاعت أن توجد نوعاً من الألفة بينها وبينه دون خوف أو مواربة . فإن أمها زينب ظلت أسيرة العلاقة التقليدية التي تعودت عليها مع والدها فلا تجرؤ على مفاحته في طلب فلوس زيادة عن الذي أعطها لها ، وغالباً ما تكون ابنتها هي وسيطتها إليه ، فتقول له إن أمها تريد منه مبلغاً معيناً من المال ، فيطلب منها أن تجيئه هي وتطلب ما تريد ، فتقول له الحفيدة إن أمها نائمة ، فيطلب منها إيقاظها لتحدثه هي بما تريده ، لأنه في مسألة الفلوس لا يقبل وساطات . أما في حالة إخفاء زينب عن أبيها أنها متعبة أو مرهقة أو مريضة فإنه يغضب ولا يقبل مبرراتها بأنها لا تريد مضايقته أو إزعاجه ، فليس ذلك مما يقبله لأن صحة ابنته ليست من الأمور الهينة التي تخفى عنه بحجة عدم إزعاجه بل إن محاولة إخفاء أى علة تلحق بصحة ابنته تجعله يتضايق أكثر وينور عليها ، بعكس حفيدته مريم التي يعجبه فيها أكثر ما يعجبه أنها صريحة معه ،

فكلما أرادت أن تفعل شيئاً ، تذهب إليه ، وإذا لم توافق أمها لها على شيء ، تريده يكون المرجع جدها الذي يحسم لها كل الأمور ، فمثلاً حينما تريد الخروج ، وتعرض أمها حرصاً على نتيجة ابنتها لأن الأيام أيام امتحانات ويجب على مريم أن تكرر كل وقتها لتتجح ، فلا تجد الحفيدة سوى جدها تلجأ إليه ، فيعرض هو الآخر في البداية على خروجها حتى لا يكون هو دائماً مصدر تكسير كلام أمها لها فتتراجع طاعتها لها ، ولكن مريم تعرف كيف تقنع جدها فتقول له إنها ستقضى مع نزولها حاجيات البيت الناقصة أيضاً ، فيكون البيت مثلاً في حاجة في هذا اليوم إلى مبيدات للناموس والذباب والصراصير ، فتقول له إنها ستحضر معها « سوبر ريد » فيسمح لها بالنزول ما دام خروجها مقترناً إلى جانب قضاء حاجياتها بقضاء حاجات البيت أيضاً ، وهو ما يحرص أن يعودها عليه كست بيت منذ الآن ، ثم يطلب منها أن تنادي أمها ، فيعطى لها دروساً بعد نزول الحفيدة فيها يجب أن تمارسه معها في تربيتها .. فمرة يطلب منها ألا تضغط عليها وتتشدد في حبسها بل تعطيها الحرية مع المراقبة ، ومرة ينصحها بأن تعودها على الممارسة العملية لتدريبها على أن تكون ربة بيت ، ومرة ثالثة يعلمها أن تكون صديقة لها لكي تفتح لها قلبها لحاجتها في مثل هذه السن لمن تصارحه وتسترشد بتوجيهاته ، وليس أصلح منها كأم في هذا السبيل ، ولقد أثمرت كل توجيهات الحكيم التربوية لابنته في تربيتها الحفيدة .

فالحكيم يسمح لمريم بالذهاب إلى النادي ، رغم أن والدتها تمنعها ، ولكنه ينهاها « أنها بذلك المنع ترتكب خطأ كبيراً لأن الممنوع دائماً مرغوب ، ولذلك ينصحها بأن تعطيها نوعاً من الحرية مع مراقبتها في كيفية استخدام هذه الحرية .. لأن من في مثل سنها (١٤ سنة) لا ينبغي حبسها وممارسة مهنة السجن والسجان معها .. فليس من المعقول أن

تقضى فراغها في حمل شقيقها الصغير « محمد » وترعاه هي طول الوقت ، ويجب أن تكون للبت شخصيتها « وكيانها » .

ولأن زينب لم تتعود على الخروج أو الذهاب إلى « ناد » أو إلى أي مكان آخر هنا أو هناك ، لأن أمها منعتها من كل ذلك ، فإنها ترى فيما يسمح به الحكيم لاينتها شيئاً غريباً غير مألوف لها .

ولكن عندما عادت مريم ذات يوم من « النادي » وسمعت جددا يقول لأمها أن المذبة التليفزيونية (.....) كانت عنده اليوم بمكتبه في الأهرام ، تدخلت مريم في الحديث وقالت : إن ابنتها يبقى صاحبي ، فبهتت زينب وقالت لاينتها في استغراب : صاحبك يعني إيه ؟ ، فقالت مريم بتلقائية : إنه صديقنا في النادي ، فظنت زينب أن الحكيم سيقوم بضرب حفيدته ، ولكنه لم يفعل ، فظلت تنظر لاينتها غضباً وقالت لها : كيف تعرفت في النادي على هذا الولد ؟ قالت مريم ولم تزل بعد لا يلفتها شيء في استجواب والدتها : هو يأتي للنادي وقال لي إن « مامته » بتعرف « جدو » .. ، ولاحظت زينب أن الحكيم يستمع إلى استجوابها لحفيدته بشكل طبيعي جداً ، ولم يستفزه ما استفزها من حديث « مريم » عن معرفتها بشخص غريب ، ولم تستطع أن تمد يدها عليها أو تلومها وتعنفها في وجود « رب البيت الكبير » ، فلما انصرفت همت بالخروج خلفها ، فأمسكها الحكيم من يدها لتبقى جالسة كما هي وقال لها : أنا عارف إنك تريدين ضربها .. دعيها ولا تسميها بسوء .. أنت متصورة إنها ممكن تروح للنادي وتنزل عن الناس ولا تكلم أحداً .. يا إما تسمحي لها بالذهاب للنادي أو لا تسمحي .. ولكن الأفضل أن تذهب للنادي ولكن ليس كل يوم حتى لا تكون وجهاً مألوفاً وتصير حياتها هي حياة النوادي .. اسمحي لها مرة كل أسبوع تروح تلعب رياضة أو تقابل أصدقاءها وصديقاتها » .

في البداية كانت الأم زينب تضغط على ابنتها ألا تذهب « للنادي » ولكنها لما سمحت لها بناء على نصيحة الجد الحكيم تبين لها أنه كان محققاً في وجهة نظره ، فلم تعد مريم تذهب للنادي إلا مرة كل شهر ، تلبس ملابس الرياضة وتجري في الساعة السابعة صباحاً لمدة ساعة ثم تعود إلى البيت ، فلم يعد النادي بالنسبة لها إلا مكاناً لممارسة الرياضة ، ولذلك حينما تطلب منها أمها أن تذهب للنادي ، هي نفسها التي ترفض وتقول « أنا لا أحب صحبة النوادي ولا أستريح لشلل النوادي » ، أما حينما كانت أمها تتمتعها عن « النادي » كانت تتضايق لأنها تعتبر أن عالم « النوادي » عالمًا جديد عليها تريد أن تستكشفه خاصة وأنها ترى صويحباتها يذهبن إليه ويتحدثن عنه ، فلما سمح لها بارتياحه أصبح شيئاً عادياً بالنسبة لها ، لا يثير إهتمامها أو فضولها ، وهكذا تبين للأم أن الجد كان على حق في توجيهاته لها نحو حفيدته .

ولكن عندما جاءت مريم لتقول لها أنها تريد أن تذهب في رحلة مدرسية إلى الأقصر وأسوان ، رفضت الأم بشدة وقالت لها : رحلة للأقصر وأسوان ؟ يعني ستبتئين خارج البيت .. مستحيل .. ولكن الحكيم كان له رأى آخر ، فقد قال لزينب « كيف تضيعين على ابنتك فرصة مشاهدة معالم وآثار بلدها .. إنك تتصرفين معها نفس التصرفات التي كنت تشكين منها مع أمك » . فقد كانت زوجة الحكيم شديدة المحافظة .. فلم تسمح لزينب بأى رحلة مدرسية إلا إذا كانت العودة في نفس اليوم ، كرحلة لحديقة الحيوان مثلاً ، أما ماعدا ذلك فممنوع ، ولم يعرف الحكيم بتشدد زوجته على ابنتها إلا في سنواته الأخيرة عندما كانت زينب تجلس إليه ، ويتذكران معاً حياة الأسرة زمان ، فتحكى له ابنته عن طبيعة معاملة أمها لها ، وكيف أنها قد ضيقت عليها وحرمتها من أى رحلة مدرسية حتى لو كان فيها مبيت ولو لليلة واحدة ، فيقول الحكيم

لابنته : ولماذا لم تخبريني وقتها ؟ ، فتقول له « لأن كان فيه حاجز بيننا وبينك يمنعنا من أن نقول لك على شيء أو نتحدث إليك » ، فيتذكر الحكيم كيف أنه هو الذى صنع ذلك الحاجز من العزلة بينه كفنان وبين مسؤولياته كرب أسرة ، واحترمت زوجته شروط عزلته فكانت تصرف كل أمور أبنائها بنفسها ، وها هو الحكيم لا يكتشف كل ذلك إلا بعد فوات الأوان ، ولذلك حينما تحدثه ابنته عن تشديد أمها عليها يذكرها هو بذلك عندما تتشدد على ابنتها ويسألها : لماذا تحكمين الحصار حولها هكذا ؟ ، فتقول له : لأن ماما كانت تتصرف معى كذلك ، فيقول لها : ولماذا تكررين مع ابنتك نفس التصرفات التى تحملين بسببها أمك كل مشاكلك والتضييق على حريتك لدرجة أنك حتى الآن لم تذهبي إلى الأقصر وأسوان .. فكيف تضيعين على ابنتك نفس الفرصة التى ضاعت عليك من قبل عندما كنت تلميذة مثلها .. دعيها تسافر .. ففوائد الحرية أكثر بكثير من فوائد التشديد والتضييق ، بل على العكس معاملتك لمريم معاملة الحارس للمسجون لن تحقق لك إلا عكس ما تريدين .

وقد اعترفت زينب للحكيم بأنه محق فى كل توجيهاته ، فقد أصبحت ابنتها صديقة لها بعد أن شعرت أن أمها تحترم حريتها وكيانها وشخصيتها فصارت تشاورها وتصارحها وتطلعها على خصائص تصرفاتها مما جعل الأم فخورة بابنتها تحكى لها عن تجربتها فى الحياة وتبين لها مواضع خطئها حتى لا تقع فيها .. ورغم أن زينب قد تفهمت مطالب والدها بشأن أسلوب تربيتها لابنتها وصارت تجنى ثمارها إلا أن ذلك لم يكن يمنع من وقت لآخر تأثرها بأسلوب والدتها فى تربيتها هى ، والتى ارتبطت بها أكثر من الحكيم ، فبعد أن وافقت على وجهة نظر والدها بسفر ابنتها مريم فى رحلة إلى الأقصر وأسوان ، ثم بعد ذلك فى رحلة أخرى إلى « شرم الشيخ » و « سانت كاترين » بسيناء ، تنفيذاً لتوجيهات الحكيم بضرورة عدم تضييع

أى فرصة على أحفاده بالثقافة السياحية بمشاهدة معالم وآثار بلدهم ،
إلا أن مريم عندما أخبرت والدتها برغبتها فى الاشتراك فى رحلة مدرسية
سمعت أن مدرستها تعد لرحلة إلى العاصمة الفرنسية فى الأجازة
الصيفية ، كان رد الفعل مختلفاً ، وكأنما أرادت مريم أن تجس نبض أمها
حيال رحلة منتظرة كهذه ، ولأن الأم انزعجت بشدة لمجرد أن يخاطر
لابنتها مجرد خاطر للمشاركة فى رحلة كهذه ، وقالت لها منبهة الحديث فى
هذا الموضوع « كله كوم وفرنسا كوم » ، وعلى الرغم من انزعاج زينب
لشطحات ابنتها إلا أنها كانت مطمئنة إلى أن الحكيم رغم تسامحه مع
حفيده وسماحه لها برحلات داخل مصر إلا أنه لا يمكن أن يوافق على
سفرها فى رحلة إلى باريس ، هكذا ظنت زينب أو خيل إليها أنها مطمئنة
إلى جواب رب الأسرة الكبير فى هذا الموضوع الذى لن يختلف معها فيه ،
وكذلك كانت مريم مطمئنة هى الأخرى إلى جواب جدتها فى موافقتها على
رغبتها بالسفر إلى خارج الجمهورية ، فقد كان يعدها إذا تفوقت فى
دراستها وحصلت على درجات محترمة فى نهاية العام الدراسى فسوف
يكافئها تشجيعاً لها برحلة إلى « باريس » ، ولكن زينب كانت ترى فى
مثل هذا الوعد مجرد تشجيع معنوى من والدها لحفيده ، لأن درجات
مريم لم تكن فى الغالب جيدة مما يمكن أن يلزم الحكيم بالوفاء بوعد ،
وكانت حين تحصل على درجات يمكن أن تثير حفيظة أمها كان يكتفى بأن
يطلب منها ألا تغضبها ، وحين ذهبت لتطمئن على أحوالها الدراسية من
مدرستها ، عادت لتخبر الحكيم بأن حفيده مشاغبة ولن تفلح فى
دراستها ، ولكنها مع ذلك متفوقة فى اللغة الفرنسية على الثلاثة فصول ،
فبيتهج الحكيم ويرى فى ذلك مبرراً فى ألا تغضب ابنته ، حفيده ، حتى
يكون ذلك تشجيعاً لها على التقدم فى بقية المواد الدراسية ، ولذلك كان
ترحيب الحكيم بالموافقة لحفيده على المشاركة فى رحلة باريس ، رغم

اعتراض أمها التي قالت له وهي متأكدة أنه سيحسم المناقشة لصالح رأيها « أظن في موضوع رحلة باريس حضرتك لن توافق » ، ولكنها فوجئت به يقول لها « في هذا الموضوع بالذات أنا موافق » ، وقال لحفيده « لو نجحت هذا العام أنا موافق على سفرك في رحلة باريس » ، وصمتت زينب وهي تحاول أن تخفي خيبة أملها بعد أن قال رب الأسرة الكبيرة كلمته ، ومع ذلك كان لديها أمل في إقناعه بالتراجع عن موافقته المبدئية ، مع نهاية العام الدراسي فتعود لمناقشته في هذا الموضوع مرة أخرى ، ولكن قبل أن ينتهي العام الدراسي وتنجح حفيده ، كان الحكيم قد مرض مرضه الأخير ، ولم تكن هناك مناسبة أو مجال لكي يمضى في وعده لحفيده أو يتراجع عنه ، ولن تستطيع مريم أن تداعبه وتشاركه وتدله .

* * *

إن الحكيم يجبها وهي أيضاً تحبه وكانت تدخل عليه حجرتة في أى وقت ويدور بينها حوار ينتهى غالباً بحديث الفلوس ، فهى مثلاً حين تستأذنه في الخروج ، يسألها عن خط سيرها ، فتخبره أنها ذاهبة لزيارة إحدى صويجاتها ، فيسألها عن اسمها ، وشكلها إيه ؟ حلوة ولا وحشة ؟ فالحكيم يجب صويجات حفيده ذوات الشعر الأصفر والعيون الخضراء ، فتلك هى النوعية التي يجذبه إليها جمالها كما اعتاد على ذلك في باريس أيام الشباب ، ولذلك ففضلاً عن حبه لمريم بحكم أنها حفيده فإنها أيضاً تنطبق عليها مواصفات الجمال التي يجبها ، وقد استطاعت مريم أن تعقد بين جدها وبين صويجاتها صداقات استمرت حتى في الأجازات المدرسية ، فهو يلتقى بهن بعد إنتهائهن من تلقى دروسهن مع حفيده ، في المنزل ، بل إن واحدة من صويجات مريم في فترة الإقامة بالإسكندرية قبل الانتقال والاستقرار في القاهرة ، كانت تأتي من الاسكندرية خصيصاً لرؤية الحكيم في القاهرة ، فقد كانت صاحبات مريم هن صاحبات أيضاً

للحكيم خصوصًا الجميلات منهن ، أما القصيرات اللواتي لا يتمتعن بالجمال فيقول لحفيدته ألا تأتي بهن إليه مرة أخرى !
وإذا سأل الحكيم عن زميلة لحفيدته تريد زيارتها ، وأجابته بأن جماها من النوع العادى ولكنها تعرف كيف تجعل نفسها جميلة بحسن ذوقها فى اختيار ملابسها وحسن هندامها ، يقول الحكيم : يعنى إيه ؟ فتقول الحفيدة الذكية مستدرجة جدها إلى ما تريده بطريقة غير مباشرة « يعنى هى تلبس ماركات مستوردة » ، ويدور حوار بينها وبين جدها حول ماركات الملابس وأسعارها الغالية والرخيصة ، ثم تدخل مريم إلى هدفها المقصود من هذا الحوار بأن تطلب من جدها « فستانًا » من تصميم « بييركاردان » - مصمم الملابس الفرنسى الشهير - فيغضب الحكيم ويشور بعد أن استفزته حفيدته : ولماذا « بييركاردان » ؟! محتجا بذلك على هذا الاتجاه للمستورد .

ولا تدرك حفيدة الحكيم من سر ثورته إلا أنه لا يريد لها أن ترتدى الملابس المستوردة لأنه سوف يدفع وهو لا يريد أن يكلف نفسه ويغرم غرامات باهظة . إن الحكيم يعجب بحفيدته ولكن كله إلا المستورد ، فهو كريم معها ولكن فى حدود المقبول والمعقول ، فعندما يعطيها مثلًا عشرة جنيهات لتشتري له شيئًا « كالأدوية » - مثلها يفعل مع حفيده - وتكون قيمتها أربعة جنيهات ، يترك لها الستة الباقية ، وهو يكافئها بعشرة جنيهات أسبوعيًا لأنها تقدم له « البيبسى كولا » ليس من جيبها بل من جيبه أيضًا ، فهو يعجب بطريقتها المنظمة فى تقديمها إليه على صنية مفروشة ومعها الثلج والملعقة ومناديل الورق ، فيفرح الحكيم بحفيدته النظيفة المنظمة والتي نجحت فى اكتسابه بسرعة منذ أن استقرت وإخوتها والبتها معه بشقته فى القاهرة ، وكانت بداية الصداقة بينها وبينه هى زجاجة المياه الغازية التى تحضرها له ومعها « فاتورة الحساب » ،

ولا يكون ابتهاج الحكيم بالمشروب المثلج في حد ذاته ولكن ابتهاجه يكون بسبب « الفاتورة » التي تحرص حفيدته على تقديمها له مع أى شىء تقوم بشرائه له ، فهو يراها بذلك ذا عقلية اقتصادية مدبرة بعكس ابنته زينب وابنه الراحل إسماعيل اللذان لا يحسبان حساباً لأى شىء ، فتأتى الفلوس في أيديها وتذهب ، ولا يعرفان كيف ولماذا ؟ لذلك حين يرى الحكيم حفيدته مريم تشتري له الشىء ومعه فاتورة الحساب ، يعتقد أنها ستكون أكثر نجاحاً وتدبيراً في حياتها ، وأكثر فهماً ومهارة في تعاملها مع الواقع المادى الذى أصبح يطبع العصر بطابعه ، فهو وإن كان يرى حفيدته تأخذ مقابلاً مادياً أمام كل خدمة تؤديها له مما قد لا يسعده أنها لا تقدم خدماتها له لأنه جدها ولكن لأنها تتقاضى مكافأة عن تلك الخدمات ، إلا أنه رغم ذلك يكون سعيداً بأن حفيدته ستكون هى زوجة المستقبل المدبرة ، وأنها يحرصها على الفاتورة والحساب ستفلسح فيما لم تفلسح فيه أمها ، ولذلك كان يقول لها : علمى أمك لتكون مدبرة مثلك !

وعندما يرى أن نظام الطعام في البيت قد اختل .. فلا مواعيد للأكل .. وكل من يريد أن يتناول شيئاً يتناوله في أى وقت وفي أى مكان بعيداً عن مائدة الطعام ، وأن نوعيات الأكل كثيرة على الغداء ، مكرونة ، وبطاطس ، وخضر ، ولحم ، وعيش ، فقد طلب من منصوره ألا يحتوى الطعام بعد ذلك على النشويات خوفاً على الأولاد من السمنة ، والاكتفاء باللحم والسلطة والخضر ، ولكنه عندما فوجئ بارتفاع فاتورة اللحم ، قال لابنته : البلد لم يعد فيها لحوم ، والسادات قال اتقشفوا . فلما قالت له ابنته : ألم تكن أنت الذى نصحتهم بالابتعاد عن النشويات وأكل اللحم ؟

فقال لها : فليأكلوا النشويات ، وبدل اللحم فيه عدس .. فيه فول ! أما مسألة عدم الانتظام في مواعيد الطعام ، فإنه رغم إنزعاجه لهذه

القوضى التي لم يتعود عليها ثم تطبعه بها بعد ذلك ، إلا أنه كان عندما تعده حفيدته مريم بأنها سوف تتولى عملية تنظيم مواعيد الطعام وإعداد المائدة في مواعيد محددة بحيث لو تخلف عنها أحد فلا طعام له إلا عندما يحين موعد الوجبة التالية ، فإن الحكيم كان يبتهج لمجرد أن تفكر حفيدته مثل هذا التفكير ، ويسعد لنواياها في النظام حتى لو لم تنفذ شيئاً مما وعدت به ، إلا أنه يرى في مجرد تفكيرها بذور أمل في نجاحها في حياتها المقبلة حينما يكون لها بيت وأسرة ، صحيح أنها لم تفعل شيئاً يدل على ذلك إلا أنه يلتمس لها العذر لقللة حيلتها وهي فتاة صغيرة على أن تغير نظام بيت بأكمله من الصعب إنتزاع أفراده من عاداتهم بسهولة ، ولكن حينما تكبر مريم وتستقل ببيتها فسيكون باستطاعتها حينذاك أن تنجح فيما لم تنجح فيه في بيت جدها ، ما دام هذا هو تفكيرها وحبها للنظام .

وفي مقابل هذه الصورة الجميلة التي انطبعت لدى الحكيم عن حفيدته ، تختلف الصورة المنطبعة لديه عن أمها زينب ، فرغم أنها منظمة في حياتها إلى درجة متعبة لأولادها وللحكيم نفسه الذي كان يقول لها :
لم يبق إلا أن تعلقينا في النجفة حتى يظل البيت على نظافته !
فإن الحكيم عندما يرى لها تصرفاً بعيداً عن النظام تنطبع لديه صورة نهائية عنها أنها غير منظمة على الإطلاق في حياتها ، فقد شاهدها ذات مرة وهي تلتقط بقايا طعام وحلوى ، أخذ ابنها محمد (١٨ شهراً) غرضه منها ثم ألقاها على الأرض ، فامتدت يدها بها إلى فمها عن غير قصد ، فاعتبرها الحكيم إنسانة مهملة فوضوية عديمة النظام ، ولا يمكن أن يغير نظرتة إليها مهما حاولت إقناعه ، فقد رأى بعينه مالا يجعله يغير قناعاته ، ولذلك حينما تأتي مناسبة في مجال المحافظة على الصحة والنظام يقول لحفيدته :

أصل أمك غير منظمة ! وتظل الصورة التي رآها يتردد صداها في ذاكرته ويعبر عنها لسانه كلها استدعتها المناسبة ، مما يجعل زينب تشعر بكلمات أبيها كالسوط الذي يلهب ظهرها ويحرق دماها ويشعرها بموت معنوي لا تطيقه ولا تحتمله ، ولذلك كانت تخشى أن يكتشف شيئاً جديداً مما قد يرى فيه تصرفاً يدل على قلة النظام ، فقد كان من رأيها أن تكون فترة الصباح لتنظيف البيت ، ثم يستقبل الحكيم ضيوفه في فترة العصر ، ولكن الحكيم كان يفضل استقبال ضيوفه في الصباح بدءاً من الساعة العاشرة والنصف ، وفي صباح يوم سبت كان التلميذ على موعد فيه معه واتصل به كالعادة تأكيداً للموعد باستثذانه في الحضور إليه ، ولكن الذي رد عليه في التليفون كانت ابنته زينب التي سمعها تطلب منه إرجاء موعد حضوره إلى يوم آخر لأنها قد بدأت في أعمال المسح والتنظيف في ذلك الصباح ، وأن حضوره حيث يستقبله والدها في شرفة صالة البيت سوف يكشفها أمامه وتتلقى منه لوماً وتأنيباً على انعدام نظامها في عدم التزامها بأعمال التنظيف في آخر النهار حتى يتسنى له إجراء مقابلاته المفضلة في فترة الصباح ، ووجد التلميذ نفسه حائراً فكيف يجرؤ على تأجيل موعد حدده له أستاذه ، غير أنه كان مشفقاً على زينب من غضب والدها وثورتها عليه ، فتحجج للحكيم بأن الموضوع الذي كان سيراجعه معه لا زال في حاجة إلى تعديل ولذلك طلبت منه إعطائي موعداً آخر ، ولكنه قال له بلهجة كأنها الأمر : أنا في انتظارك ، وأسقط في يده ، واتصل بعد قليل على أمل أن يكون المتحدث هو « زينب » ولكن ردت عليه « منصوره » مديرة البيت وأخبرها بالمأزق الذي هو فيه ، فوجدها مطمئنة وتطلب منه الحضور لأن « البية » في انتظاره ، ويبدو أنها كانت قد حلت المشكلة بمكائنتها عند الحكيم ، وأفهمته أن أعمال تنظيف البيت في ذلك اليوم بالذات لم تكن لتحتمل التأجيل إلى آخر النهار وأنها لذلك تلتبس منه

العدر ، واستقبل الحكيم تلميذه في ذلك الصباح في غرفة مكتبه ، ولولا « منصوره » لكانت « زينب » قد سمعت لها كلمتين لم تكن بحاجة إليها ، وتكفى الفكرة التي أخذها عنها والدها .

وقد استغلت مريم حب جدها واهتمامه بالمحافظة على الصحة والنظام لتمارس شقاوتها ومشاكستها مع « منصوره » حينما تغضب عليها أو تختلف معها ، والحفيده تعلم مدى حب وتقدير جدها لمديره بيته ولن تستطيع أن تجعله يقف معها ضدها ، ولهذا فإنها تضرب له على وتر النظام والنظافة والصحة ، فتأتى له لتقول على كوب « الزبادى » الذى أتت له به «منصوره»: يا جدو .. هذا الزبادى ملئ بالاشعاع^(*) .. ومنصوره لا يهمها شيء .. إنها تترك المطبخ دون تنظيفه فهو ملئ « بالصراصير » .. وأنا بعينى رأيت « صرصاراً » فى المطبخ ! ، فينفعل الحكيم خشية على صحته وصحة من فى البيت ويقول بلهجة يبدو فيها الغضب الذى لا تشعر به « منصوره » أو يجعلها تأخذ على خاطرها منه : « ماذا تفعلين يا منصوره .. إذا كان المطبخ غير نظيف .. ألا تأخذين بالك ؟! » .

وتكتم الحفيده ابتساماتها وضحكاتها فقد نجحت فى استشارة جدها على مديره بيته ، وهو طبعاً لا يعرف أبعاد اللعبة التى قامت بها حفيدته لأنه لا يعرف أن بينها وبين « منصوره » خلافاً ، جاءت بسببه تحاول أن توغر صدره عليها ، ولكن مريم لا تلبث إلا أن تشعر بالعطف على « منصوره » فتذهب إليها مداعبة : معقول جدو « يزقق » لك ؟! « ، ثم تقوم بعمل المصالحة بينها لإزالة ما اعتقدت أنه خصام ، وفى أحيان أخرى

(*) أيام إنتشار الجدل حول تلوث بعض الأطعمة المستوردة بإشعاع المفاعل النووى السوفيتى « تشرتوبيل » الذى انفجر إهمالاً .

كانت « مريم » تأتي لتقول لمنصورة على أشياء لم تحدث ، بقصد الضحك والمشاكسة ، ولما اكتشفت « منصورة » ذلك كانت تطلب منها ألا تقول لها على أشياء لم تحدث لأنها تصدقها في كل شيء تقوله لها ، فتشفق عليها مريم وتقول لها : إنها آخر مرة .. أنا غلطانة « ، ولكن شقاوة الحفيدة مع « منصورة » ليس فيها شيء اسمه آخر مرة .

ورغم دلال مريم على جدها واعتبارها عنده أفضل مثل للنظافة والنظام حتى من والدتها ، إلا أنه حينما انفعل ذات مرة على « أمها » ، حدث شيء لم تكن تتصوره الأم .

فقد تولت ابنتها الرد على جدها دفاعاً عنها ، فقالت له : كيف تثور على « مامي » وتكلمها بهذا الشكل .. ألا يكفي أنها تدبر أمر هذا البيت وتتولى أعباءه ومسئوليته وتتحملنا رغم كل هذا « ؟ ! وبين دهشة الأم وذهولها من جرأة ابنتها التي فوجئت بها ، حاولت إخراجها حتى لا تتأزم الأمور بينها وبين جدها ، فمريم لا تفهم أن هذه ليست أول مرة يثور فيها الأب على ابنته ، وهي ثورة مؤقتة لا تلبث أن تزول خلال عشر دقائق يصلحها بعدها ، ولكن مريم لم تكن تعرف ذلك عندما وقفت تزود عن أمها ، صحيح أنها ترد بأدب ولكنها المرة الأولى التي ترى فيها زينب أحداً يقف أمام الحكيم ويرد عليه وجها لوجه ، وبعد أن ردت الحفيدة على جدها بغضوية وتلقائية الابنة المحبة لأمها دفاعاً عنها أمام ما اعتقدت أنه إهانة لها حتى لو كان ذلك والد أمها الذي هو في نفس الوقت جدها الذي تحبه ويحبها ، فإن الأم وقد فوجئت بهذه الجرأة من ابنتها أمام رب البيت الكبير ، ظنت أن الحكيم سوف يفرع مثل فرعها ويتطور الأمر إلى ما هو أسوأ ، فأرادت أن تتلافى المسألة ، فطلبت من مريم أن تغادر الحجر فوراً في محاولة منها لتهدئة الموقف المتوتر ، ولكن ابنتها ردت عليها بما يعكس

ثقتها في قدرها عند جدّها ودلاها عليه ، فقالت « أرجوك » يا مامي « لا تتدخل بيني وبين جدو » ، ولم يتكلم الحكيم ، الذي لم تظهر على وجهه سوى ابتسامة خفيفة لمحتها زينب فاطمأت على أن شيئاً مما صورته من مخاوفها لن يحدث ، وغادرت هي الحجرة وهي لا تزال متعجبة مندهشة مما رأت وما سمعت ، ولكن دهشتها ازدادت بعد حوالي خمس دقائق عندما حدث مشهد عجيب آخر لم تتوقعه ، فقد رأت مريم تقوم بإطعام جدّها كوباً من « اللبن الزبادى » ، وتساعده على رياضة المشى وهو سعيد يضحك ، فلم تصدق زينب نفسها وهي ترى الصورة المتوترة بين الجد وحفيدته قد انقلبت خلال دقائق إلى صورة أخرى لا يتخيلها أحد ، ولذلك حينما سألت زينب ابنتها بعد ذلك عن سر هذا التحول من موقف يشبه الخصومة إلى موقف كله حب ومودة ، أوضحت لها ، أنها قالت لجدّها كل ما في نفسها وانتهى الأمر ، وليس معنى ذلك أنها خاصمته ولن تجلس معه ، بل على العكس هي تحبه ولذلك فهي تصارحه وهو يجب صراحتها ، فذلك يسعد الحكيم ، الذي تركها تفرغ كل مآلدتها من شحنات الانفعال مكتفياً بابتسامة هادئة مستمعاً إليها ليعرف وجهة نظرها مهما كانت غاضبة ، فهو ديمقراطى فى معاملاته ، ويتيح للطرف الآخر أن يتحدث إليه ولو بانفعال ثم يقوم هو باقناعه وكسبه إلى وجهة نظره ، ولقد فهمت الحفيدة وعرفت ما لم يفهمه أو يعرفه أبناء الحكيم أنفسهم الذين كانوا يتجنبون الحديث إليه ، أما مريم فقد استطاعت أن تخترق جدار عزلة جدّها ، تلك العزلة التي لم تستطع أمها أن تقترب منها إلا بحذر ، ولذلك حينما وجدت ابنتها تداعب الحكيم وتقبله وتحتضنه ظنت أن ذلك مما يضايقه ويقضيه لأنها لم تتعود على هذه العلاقة الطبيعية المفروض أن تكون بين أب وابنته ، فلم يحدث أن تجرأت على تقبيل والدها أو احتضانه لأنه لم يعودها على ذلك هي وأخيها الراحل إسماعيل ، لذلك طلبت من ابنتها ألا

تضايق جدتها فكان ردها أن جدتها يسعد بذلك ولا يتضايق ، وكان الحكيم بالفعل كذلك لأنه أدرك عواقب ابتعاد أبنائه عنه ، وكان ذلك بعد فوات الأوان ، فأراد أن يعوض ما فات مع أحفاده ، فسمح لهم بما لم يسمح به لأبنائه مما أزعج زينب التي قالت له ذات مرة بعد انصراف مريم ومداعباتها لجدتها ، أنها ترجو ألا يكون قد تضايق من حفيدته .

فقال لها : دعى مريم تتصرف معى بتلقائية . فهى تفهمنى وتعرف كيف تعاملنى .. لا تتدخلى بينى وبين الأولاد .. أنا أحبهم لأنهم يتكلمون معى بصراحة كانت غائبة عنكم زمان حينما كنتم تعاملوننى كأننى « يوبع » .. يعنى حاجة يخوفوا بها العيال .. لذلك بعدتم عنى ولم تكونوا تتخطون عتبة حجرى كأن بينى وبينكم حاجزاً .. وأنا لا أريد اليوم حاجزاً بينى وبين أحفادى .. لا تعودينهم أن يخافوا منى .. دعيهم يقولون ما فى قلوبهم ونفوسهم فأنا أعرف كيف أقنعهم وهم أيضاً يعرفون كيف يقنعوننى .. فاتركى العلاقة بينى وبينهم تستمر سلسلة طبيعية .

ولا تملك زينب أمام حجة ومنطق الحكيم سوى الصمت ، ولم تعد تناقش والدها فيما يحدث من تطورات العلاقة بينه وبين أحفاده .

الفصل الخامس

الخليفة

- نصيحة من الحفيد الأكبر لأمه :
حذار أن يكون إبنك مثقفا .

كانت أكثر هذه العلاقات طبيعية هي علاقة توفيق الحكيم بأصغر أحفاده ، « محمد » ، ذى الثمانية عشر شهرا والذي أراد الحكيم أن يمارس معه الأبوة كاملة منذ البداية ، فمنحمد لا يزال طفلا ، وهو يريد أن يعيش معه دور الأب الذى فاته أن يعيشه مع أبنائه منذ بداية طفولتهم ، ذلك رغم أن الحكيم نفسه كان معترضاً على مجيء « محمد » ، ونصح أمه بإجهاضه ، حتى لا تحمل نفسها أعباء جديدة بجانب مريم ، وإسماعيل ، خاصة بعد وفاة زوجها ، ولكن زينب كعادتها كانت لا تفعل إلا ما تقتنع به ، فأنجبت مولودها الذى أسمته على اسم أبيه الراحل ، ثم كان من العجيب أن توفيق الحكيم نفسه هو الذى راح يحلل لابنته حكمة وجود حفيده الجديد الذى لم يكن راغباً فى وجوده ، بينما كانت زينب التى صممت على عدم إجهاض نفسها ، هى بذاتها التى تقول بعدما أنجبت وليدها : هل سأبدأ مشوار الأطفال من أول وجديد ؟

فكان الحكيم هو الذى يقول لها : لن تدركين حكمة وجود « محمد » إلا فيما بعد .

وكان يقارن لها بين ظروف مولده يتيما ، وظروف مولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

ويرى الحكيم أن حفيده الجديد يشبه جده ، وكان يقول بأن الله سيعوضه عن يتمه بأن يجعل له شأناً كبيراً فى المجتمع ، وتوقع أن يكون هذا الشأن فى مجال الكتابة والأدب ، فقد كان يراه يشبهه فى ملامحه ، ويراه يدخل عليه حجراته ينظر إلى الكتب ، فيقول لأمه : أنظري محمداً إنه يهتم بالكتب وينظر إليها .. إنه هو الذى سيحافظ على تراثى .. إن جده ناشر وأباه ناشر .. وجده لأمه هو توفيق الحكيم .. فيمكن العلاقة

بالكتب والأدب تمتد إلى محمد بالوراثة « ، وعندما كان أخوه إسماعيل يسمع هذه التنبؤات من جده لحفيده الصغير ، كان يقول لأمه : خذى بالك .. حذار يطلع مثقف .. إنه لن يفلح .. وسيكون معقداً « ، وكأن الحفيد المشاكس يقرأ الواقع الموجود بأنه لم يعد للمثقفين شأن أمام الطبقات الدنيا الجديدة ، وهو نفس رأى جده .. فقد تراجع المثقفون .. لم يعد العصر عصرهم .. ورغم أن الحكيم كان يقارن بين حال الأدباء وحال فئات الأخرى تقدمت الصفوف في المجتمع كأهل الفن والكورة وأصحاب الحرف ، إلا أنه حتى لو عاد به الزمان ليكون شيئاً غير توفيق الحكيم لما استطاع وما أفلح أن يكون غير الكاتب المفكر الأديب ، رغم أنه في بعض أحاديثه الأخيرة كان يعلن أنه لم يفعل شيئاً في حياته له قيمة ، غير أنه كتب بعض الكلام على الورق ، وأنه تمنى لو كان يجيد « الرقص » البلدى لكى يرقص لنا ، أو لو كان لاعب كرة « قدم » لكى يدخل لنا في شبكة الخصوم « جونين » ، لأنه يرى أن القيمة الوحيدة التى يتبناها المجتمع - الآن - هى المال فقط بصرف النظر عن مصدره .. رغم كل هذه التصريحات المتشائمة فقد كان الحكيم فى اعتقاده أنه حتى لو بدأ حياته فى هذا العصر ما تمنى ، وما أراد إلا أن يكون كاتباً ومفكراً ، وهاهو يتمنى لحفيده أن يكون ورثته فى هذا المجال ، ولا يتمنى الجدل لأحفاده إلا كل خير يرجوه لهم .. لأنه كما يقولون فى المثل الشعبى « أعز الولد ولد الولد » ، أى أن المحبة والإعزاز لا تكون من الأب لابنه قدر ما تكون لحفيده ، ومهما يكن الفكر والأدب ليسا وسيلة مثلى لجمع المال فى العصر المادى ، إلا أنه تبقى القيمة واحترام النفس ، وهذا أشد ما يحرص عليه الحكيم ، وكان يتمنى أن يكون حفيده محمد ، محمد على حسن ، خليفة له ، وكان يقول له كلما اقترب من مكتبه ومكتبته : خذ بالك من كتبى يا محمد .

وكأنه يوصيه أن يكون حاملاً لقلمه ، ومن الطبيعي أنه لولا قناعة الحكيم بأن أمانة القلم ذات جدوى ولصاحبها قيمة ومعنى - رغم كل المقارنات بأصحاب المهن الأخرى في عصر المادة - ما تمى الحفيده أن يكون هو المحافظ على تراثه ، الذى ينهج نهجه ويسير على دربه . وكان « محمد » يمسك بملابس جده ، ويرتكن عليه ، ويشد عصاه يريد أن ينتزعها منه ، فراح الحكيم يتحدث إليه كأنه يسمعه ويفهمه ، فقال له :

إيه رأيك لو عملنا اتفاقية .. سأعطيك عصا صغيرة تناسب طولك وسنك وتمشى بها معى فى الطرقة » . وأهداه عصا صغيرة لكى لا ينازعه فى عصاه الكبيرة ، ولكن الحفيد لا يقنع إلا بالعصا الكبيرة ، فيحاول أن يأخذها منه ، بينما الحكيم يحاول إرضاءه بإعطائه عصا أخرى كبيرة من تلك العصى التى يحتفظ بها ، ولكن يبدو أن شقاوة الطفل وذكاءه يجعلانه متيقظاً لأى محاولة لإثثائه عن عزمه فى الحصول على العصا التى يتوكأ عليها جده بالذات ، فيرفض أى عصا غيرها ، مما اضطر الحكيم إلى عقد معاهدة مع حفيده ، فقال له : عندما أتمشى دع لى العصا .. وعندما أدخل حجرى خذها العب بها .

ورغم ذلك كان الحفيد الصغير يحلو له أن يسير بالعصا الصغيرة - مؤقتاً - إلى جوار جده ، ويقلده فى مشيته وحركته ، وكان يحلو له أن يعبث بعجلته الطبية ، فيداعبه الحكيم قائلاً :

يا ولد يا عكروت ستفسد العجلة ، . وكان الحكيم يلاعب حفيده بما كان يلاعب به أخويه : إسماعيل ومريم ، فى طفولتها ، فيضع يده فى « جورب » ويشكل له به أشكالاً مختلفة بأصابعه : كلباً ، أو حمامة ، أو طاحونة دوارة ، ويقلد أصواتها ، وكانت زينب فى طفولتها تنبهر بمثل هذه الألعاب حينما يلاعبها بها والدها فى تلك الأوقات القليلة التى يعطيها لها

ولأخيها ، أما اليوم فإن « محمداً » لا يلتفت إلى ألعاب جده ، إنه ينظر إليه باستغراب ثم يدير له ظهره ، باحثاً عن شيء آخر مثير يلعب به ، فهذا الجيل قد تجاوز به بالتلفزيون سنوات عيمه المحدودة ، فقد صارت معلومات طفل اليوم أكثر ، وإدراكاته أوسع ، لذلك فإن ما كان يستوعبه جيل الحكيم ، في سنوات ، صار الجيل الحاضر يستوعبه في سنة أو شهر قليلة ، تماماً مثل البشرية في مراحل تطوراتها المختلفة ، حتى صار ما أحرزه العلم من تقدم في السنوات الأخيرة ، يساوى ما تحقق خلال مئات السنين الماضية ، في مجال الطب مثلاً ، كانت هناك أمراض يستعصى علاجها للأطفال . أصبحت الآن من أبسط ما يتم علاجه ، ورغم ذلك فقد كان الحكيم بالنظر إلى ما كان في جيله يحرص على صحة حفيده ، محمداً ، ويطلب من أمه أن تحرص على مواعيد تطعيمه ، والاعتناء بإرضاعه ، وكان يناقش الطبيبة التي تقوم على رعايته في كل ما يخص صحة حفيده ، بل إن الحكيم حينما كان بالمستشفى ، لم يكن مشغولاً بمرضه قدر انشغاله بحفيده الصغير ، فيكون أول سؤال منه لأمه عنه . ومن العجيب أنه في فترة وجود الحكيم بالمستشفى كان « محمد » يكتفى بالقاء نظرة على حجرة جده المفتوحة دون أن يدخلها ، بعكس ما كان يفعل حين كان جده موجوداً بها ، وتحاول أمه أن تحول بينه وبين دخولها حتى لا يزعج جده ، ولكنه يظل يطرق الباب بيديه الرقيقتين ، ويكون هو الوحيد الذى يسمح له جده بدخول حجرته والعبث بها ، حتى دولابه الذى لم يكن أحد يجروء على الاقتراب منه ، كان يسمح لحفيده الصغير أن يفتحه ويعبث بمحتوياته دون أن ينزعج ذلك الانزعاج الذى كان يحدث عندما تنقل ورقة من المكان الذى وضعها فيه .

وعندما تحدث زينب والدها عن حفيده الذى لا يقترب من حجرته في غيابه ، وتذكره بما كان منه في حضوره ، فإن هذا الحديث عن الحفيد

الصغير يكون منبها ومنشطا للحكيم لكي يكون في أحسن حالاته ، ويعلق قائلاً لابنته : إننى أمارس الأبوة لأول مرة في وجود محمد لأننى لم أشعر بكم وأنتم أطفال .. لذلك أنا أحس الآن لأول مرة أننى أب .
وكان يجعل أمه تضعه في عربة الأطفال ليلاعبه ، حتى تقضى زينب حاجيات البيت ، وكان يقول : « لم أعرف أبوتى إلا مع محمد » ولكن الحكيم الذى بدأ يشعر بأنه أب مع حفيده الصغير ، لم يستطع أن يستكمل مشوار الأبوة إلى نهايته فقد رحل الجد ولن يعود .
ولكن الحفيد الصغير لا ينسى جده ، فإنه عندما يرى صورة لتوفيق الحكيم في صحيفة أو على غلاف كتاب ، فإنه يشير إليها مؤكدا أنها صورة جده أو كما يقول بلغة الأطفال :

« ددو .. ددو » .